إسلام عماد

رواية

المسافر

THE TRAVELER

الجزء الأول

دار اكتب

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

المُسَافِر ج١

رواية..

الكاتب: إسلام عماد

شكر وإهداء..

شكرًا لكل من قرأت له كتاب.. افدتني كثيرًا..

شكرًا لعائلتي واصدقائي الاعزاء.. منكم استلهمت تلك الرواية..

شكر خاص لصديق العمر مصطفي المصري وزميلتي الفنانة سارة الشيخ..

اهداء لكم يا عائلتي الحبيبة..

ولكم.. أيها القارئ وايتها القارئة..

المُسَافِر

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداء خاص..

في إحدى ليالي ديسمبر البارده عام 1985.. ارتفع صوت بكاء طفل رضيع بأحد الشوارع الخلفية لحي شبرا.. ازدادت شدة البكاء عاليًا بطريقة متزايده كطريقة الكريشندو التي يؤديها الاوبراليون.. كان ذلك بكاءه الاول خارج رحم امه الدافئ.. فلقد تمت عمليه الولاده بالبيت، بعدما سال ماء الرحم بطريقة مفاجئة منعت أي ترتيبات مسبقة أو أي تجهيزات ممكنة لتلك الولادة المنتظرة بعد سنوات من عقم وتردد على عيادات الاطباء واحباط متواصل من كلا الوالدين..

ولم تمر دقائق حتى ازدادت حده البكاء بطريقة غريبة.. بل تضاعفت وتنوعت ايضًا.. لم يكن البكاء اتيًا من الرضيع فقط.. بل أمكن وقتها سماع أصوات عديدة لصراخ وعويل نسائي بشكل غير مناسب لظروف هذا الحدث البهيج..

يا للاسف.. فلقد توفيت الام جراء عمليه الولادة المنزلية تلك.. توفيت وقد تركت صغيرها يعاني شتاء تلك الليلة البارده وحيدًا..

لقد كان انا هذا الرضيع.. انا أدهم عبد الرحمن.. شاب مصري في اواخر العقد الثالث من عمري.. لن اسرد تفاصيل أكثر حاليا.. فالصفحات القادمه كافية ان تحكي عني ما لن تعرفوه من أحد سواي.. سوف أقص عليكم قصتي.. قد تتعجب منها.. وقد تألفها كأنه انت..

احذركم قبل قراءة تلك الصفحات ان تتركوا كل ما تعتقدون بصحته ورائكم.. فلقد كنت مثلكم.. ولكني عرفت الحقيقة..

وتركت كل ما انا فيه من وهم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1

تصاعد رنين المنبه بكل استفزاز، وكأنه يعلن اعتراضه الشديد على كسلي وسهري المبالغ فيه.. اخرسته بلكمه خطافيه بقبضة يدي اليمني طرحته أرضًا لأحاول بعدها إكمال نومي اللذيذ ثانية.. ثم تذكرت إلتزامي بمواعيد العمل.. حينها اضطررت متأففًا أن استيقظ للحاق بذلك العمل اللعين..

كان الجو ذلك الصباح باردًا بعض الشئ، ولكنه ذلك البرود المحبب الذي يبعث على الإرتجاف والانتشاء في نفس الوقت.. وبالرغم من انتمائي لفصيلة مواليد شهر ديسمبر المعروف بدرجات الحرارة شديدة الإنخفاض.. إلا ان ذلك لم يجعلني من محبي فصل الشتاء بتاتًا.. انا أميل للصيف بحرارته ودفئه.. وكم تكون فرحتي واستمتاعي عندما تلمس الشمس بأناملها الحارة بشره خدي الابيض المشرب بالحمرة.. تلك البشرة التي ورثتها عن والدتي - رحمها الله -.. لم أرها في حياتي قط، ولكني رأيت صورها مع والدي - رحمه الله أيضًا -.. كم كانا سعيدين بالرغم من عدم وجود ابن تحتضنه أيديهم.. وسبحان الله.. وقت أن جئت للدنيًا أخيرًا.. رحلت هي وتركتني وحيدًا..

قمت من على سريري متكاسلًا، متجهًا نحو دورة المياة.. قضيت حاجتي ثم اغتسلت وتوضأت وصليت فروضي.. بالطبع لا يوجد من يقطن معي تحت سقف هذا البيت ليجهز لي طعامي، لذلك لا يوجد في جدولي اليومي ما يسمي بالإفطار.. ولكن لا مشكلة.. إن قطعتين من الحلوي او تلك المقرمشات المشبعه بالزيوت ومكسبات الطعم ومستقبل مشرق حافل بالكوليسترول لقادرة على منحي ما يكفي من طاقة للوصول الى عملي نشيطًا متيقظًا..

احتسيت كوب النسكافيه المعتاد، وأنا استمع لجزء من بالية كسارة البندق الشهيرة للموسيقار الروسي تشايكوفسكي.. كم أحب تلك المقطوعة.. استماعي للموسيقي الكلاسيكية هواية محببة منذ الصغر، كان الفضل الاول والاخير فيها لجدي والد أمي رحمها الله.. هو السبب في جعلى عاشقًا لكل ماهو قديم.. الموسيقي الكلاسيكية او قراءة كتب التاريخ او مشاهدة الافلام القديمة.. يجالسني فيطوف بحكاياته في ازمنة قديمة فيها الناس أفضل مما هم عليه الآن بكثير..

اكتشفت أني قد اندمجت في الموسيقي وأضعت ربع ساعة كاملة من وقتي الثمين.. لا سيما أنى متأخر بالفعل على موعد العمل.. هرعت الى الشارع لألحق بأتوبيس النقل العام الذي سينقلني الى محل عملي خلال ساعة كامله بسبب ازدحام الطرق..

نفس الطريق.. نفس المحلات.. نفس الزحام.. اغلب وقتنا يضيع في الزحام.. كم من ساعات مرت في اشارة مرور حمراء.. او منتظرًا في طابور من السيارات الحانقة بسبب شجار سخيف بين قائدي سيارتين لم تلمس احداهما الاخرى اساسًا!!

اشعر احيانًا اننا كمواطنين مصريين لدي اغلبنا من مخزون وقته الكفاية التي تتيح له البحث عن اي سبب ولو تافه ليضيع وقته من خلاله.. اللهم ارحمنا برحمتك فأنت ارحم الراحمين..

وكالعاده.. لم يجد الركاب من حولي في الاتوبيس أفضل من الحديث في شئون السياسة وأحوال البلد لتزجية الوقت الضائع من عمرهم في علبة الصفيح تلك.. لكني كالعاده ايضًا كنت جاهزًا.. اخرجت سماعات الاذن من جيب بدلتي، وضعتهم في اذني.. سأحلق في سماء موتسارت وبيتهوفن بعيدًا عن تلك الفوضي والزحام المبالغ فيه.. ستداعب اصابع شوبان وباخ أذني المرهفة كما تداعب القطه أطفالها.. خذوني بعيدًا من هنا ارجوكم.. فأنا لا أطلب إلا السكون والسلام..

بعد ساعه من النشوي والسكينة.. اضطررت للخروج منها لبدء حياتي اليومية الرتيبة مع زملائي ورؤسائي في العمل.. اجتازت قدمي عتبة مبني المحطة الاذاعية التي اعمل بها.. فأنا اعمل مقدمًا في الراديو بإحدي المحطات الاذاعيه الخاصة.. مازلت في بداية طريقي ولكن لدي بعض المستمعين الأوفياء ويبدو أن ذلك كافيًا بعض الشئ ليقتنع المدير بإستمرار برنامجي المتواضع.. يقبع برنامجيبين كومة من البرامج التي تذيع وتقيّم الأغاني الجديدة.. والقديمة.. والجديدة التي صارت مع مرور الوقت قديمة.. والقديمة التي وجدها البعض قابلة للسماع حاليا فجعلها تبدو كالجديدة.. برنامجي الذي يدور حول موضوعات عديده مقتبسة من تاريخنا.. اتناول تلك الموضوعات مع ضيفي في صورة محاورات خفيفة شيقة وأنهي الحلقة بتوعيه المستمعين بضرورة الإهتمام بالتاريخ.. فلا مستقبل بدون تاريخ.. ولكن هيهات.. من يسمع لا يصغي ومن يصغي لا يعتبر ومن يعتبر لا يهتم أحد بإعتباره ذلك..

أدلف الى غرفة الاستراحة فأقابل عم خالد.. ذلك العامل البسيط طيب القلب الذي نال الشيب من رأسه ولكنه لم يقترب من قلبه.. فظل محتفظًا بنقاء القلب وصفاء الروح وكأنه طفل برئ.. يتفنن في خدمتنا وإدخال البهجة على قلوبنا ويقابل من يراه ببشاشة فطرية لا تكلف فيها ولا رياء.. ترتسم البسمة على وجهه بالرغم من وفاه ابنه الوحيد المجند في كمين شرطة منذ فترة ليست بالطويلة.. لذلك فهو محبوب من جميع العاملين بالمحطة.. ذهبت اليه لألقي عليه تحيه الصباح كعادتي..

- ازيك يا عم خالد.. عامل ايه يا راجل يا طيب؟

- الحمد لله يا استاذ أدهم.. كفاية اننا شفنا حضرتك

- يا راجل يا بكاش.. فاكرني هصدق كلامك الحلو دا؟

- الله وحده يعلم يا استاذ أدهم بعتبرك في معزة ابني محمود الله يرحمه

- الله يرحمه يا عم خالد.. ابنك مات وهو بيأدي واجبه.. واللي قتله في الكمين حسابهم عند ربنا.. وما ربك بظلام للعبيد

- ونعم بالله يا استاذ أدهم ثم مسح دمعه فرت من عينه بسرعه وأردف قائلًا:

- اجهزلك النسكافيه بتاعك زي كل يوم؟

اجبته اكيد يا عم خالد.. دانا مش بتمزج الا من النسكافيه اللي بتعمله بإيديك الحلوين دول

ابتسم عم خالد واتجه الى مكانه بالكافيتريا ليبدأ اعداد النسكافيه لي كما طلبت..

اختـرت احـد المقاعـد الوثيرة المـوجوده بالإسـتراحة.. واتجـهت اليـه لأجـهز أوراقـي اسـتعدادًا لحلقتـي التـي سيتم تسـجيلها بعـد سـاعة.. في حلقـة اليوم سـوف اسـتضيف أحـد كبـار المؤرخـين السـياسيين المعـروفين فـي السـاحة حـاليا ويـدعي محمـود الشربيني.. لم أقابله شخصيًا من قبل.. ولكني شاهدته في إحدي البرامج التليفزيونية من قبل.. وبالرغم من محاولات المذيعة الملطخة بالاصباغ وقتها أن تجاريه في الحوار، فشلت كل محاولاتها، فقد كان ذلك الرجل صعبًا بحق في المناقشة، يمتلك كلامه الثقيل المحمل بالمعلومات التاريخية المؤكده سلاحًا رادعًا لكل من يفكر في اخذ ناصية الحوار منه.. وقتها كم شعرت بالشفقة على تلك المذيعه الشابة التي لا تعرف حتى متي قمنا بحرب اكتوبر 1973 ولكنها بالتأكيد تعلم متي طلقت تلك الفنانة المشهورة زوجها بعد ان علمت بخيانته مع موظفة مكتبه.. او تحفظ كلمات اخر اغنية لذلك المطرب المعروف والذي تتهافت فتيات الفيديوكليب تحت قدميه بالرغم من ان اكبرهم قد تكون في سن حفيدته..

اليوم هاهو يأتيني محمود الشربيني بنفسه ليكون ضيفًا في برنامجي المتواضع.. بالطبع لم يأت احترامًا لاسمي أو مكانتي.. ولكنه اتي بعد كثير من التوسلات التي بذلها مدير المحطة الاستاذ ممدوح زهران من اجل ان يفكر الاستاذ محمود فقط في اتخاذ قراره بأن يحضر او يحجم عن الحضور.. لقد كانت الاعلانات أهم ما يفكر فيه الاستاذ ممدوح.. ووجود الاستاذ محمود الشربيني في محطته الاذاعية كفيل بجعل المستمعين على أهبة الاستعداد لسماع حواراته الكلامية مع المحاور الذي يستضيفه، لا ما يقوله في تاريخنا الملئ بالاحداث المشوقة.. فالمشاهد او المستمع الآن يهتم بالشجار الذي ينشب بين الضيوف وبعضهم البعض او بين الضيوف والمحاور أكثر من اهتمامه بالخبر المطروح في الحلقة.. وبالطبع فإن الاستاذ محمود الشربيني في تلك النقطة.. له نصيب الأسد.. بل نصيب قطيع من الأسود بأكمله..

قطـع حبـل افكـاري صـوت نحنحـة انثويـة، وقبـل ان ارفـع رأسـي لأراها علمت انـها هي.. انـها أروي.. حبيبتي وخطيبتي اخيرًا منذ شـهرين.. إنها المـلاك المجسد فـي هيئـة انسـان.. هادئة دائمًا، مبتسـمه دائمًا، بشـرتها بيضـاء كـالمرمر، وفـي عينيـها الخضراوتين تضطرم نيران انوثتها.. تخفي شعرها الحريري المنسدل تحت حجاب ملتزم زاد من جمالها.. كانت تلك أروي محبوبتي التي فتحت ثغرها الباسم لتنطق بصوت عذب:

- ايه اللي واخد عقلك كده يا حبيبي؟

- لأ مفيش.. كنت بحضر ورق الحلقة.. سيبك انتي من الورق وعقلي.. قوليها تاني كده والنبي

قالت أروي بدلال: اقول ايه؟

اصطنعت التوسل وقلت: والنبي يا انسة.. إلهي ما يوقفك في ضيقة ويجعل لك في كل خطوة ولاد الحلال

ضحكت أروي بضحكتها الطفولية والتي تعلم انها تخلب لبي عندما تضحكها.. وقالت بصوت خفيض:

- وطي صوتك يا أدهم.. خلي بالك احنا في الشغل..

ثم مالت على برأسها واكملت:

- حاضر.. يا حبيبي

نظرت في عينيها الخضراوتين وقلت: يااه.. نفسي اسمعها منك على طول.. ومسمعش غيرها طول عمري.. جاوبتني في عذوبة: اوعدك هفضل اقولها لحد ما تزهق مني

اجبتها في سرعة: ابدًا

تطلعت لي في سعاده.. لأتذكر أول لقاءٍ جمع بيننا.. كنت وقتها مجرد خريج حديث بكليه الاعلام.. فأشار على عمي كمال بأن اذهب لأستاذ وجدي رشيد المدير السابق للمحطة التي اعمل بها حاليا.. للالتحاق بوظيفة في محطته الاذاعية.. وقتها حدثني قائلًا:

- بص يا أدهم.. استاذ وجدي دا راجل محترم جدًا.. وصاحبي وحبيبي من ايام الكليه.. عاوزك تروحله وتقوله إنك ابن أخويا الله يرحمه.. وهو هيقوم باللازم..

- بس يا عمي انا مقبلش إني اتعين بالواسطة.. واحرم حد تاني من حقه في التوظيف.

اجابني عمي بعصبية: يا بني متعملش فيها فيلم عربي قديم من اللي انتا بتشوفهم دول.. بلدك دلوقتي اهم حاجة فيها الواسطة.. اللي ملهوش واسطة بيتداس تحت الرجلين.. عاوز تعيش بين الناس ولا تتداس تحت جزمهم زي اي عقب سجارة خلصانه؟

لم يمهلني وقتًا للاجابة.. وأردف قائلًا: الحق انزل دلوقتي.. السواق مستني تحت البيت هيوصلك للشغل..

ذهبت بعد ذلك لأستاذ وجدي في المحطة الاذاعية.. لأجد اعدادًا من الشباب في نفس سني.. وخمنت مما اري ان الجميع آتي للتقديم في الوظيفة.. حينها وسوس لي الشيطان بأن استغل اسم عائلتي واقتحم المكتب لأنال الوظيفة بدون حق.. لكني

قاومت تلك الافكار.. سأظل على مبدأي مهما حدث.. وان فزت بالوظيفة فسأفوز بها لأني استحقها.. لا لأني فرد من عائلة الحلواني أحد أشهر عائلات مصر..

جاء دوري في الصف.. فدخلت الى غرفة الاختبار لأجد استاذ وجدي امامي.. كان مثالًا بالفعل لشخصية المدير.. متوسط الطول، وخط الشيب فوديه قليلًا ليعطيانه شكلًا ابويًا حنونًا، يرتدي بدلة سوداء وربطه عنق زرقاء بلون السماء الصافيه، ويبتسم ابتسامه هادئة تكشف عن شخصية واثقة رزينة.. اشار لي بالجلوس على الكرسي المقابل لمكتبه.. فجلست.. سألني ما اسمي.. فأجبته أدهم عبد الرحمن.. سألني بابتسامته الهادئة:

نفسك في ايه يا استاذ أدهم؟ اندهشت من السؤال.. لكني حاولت ان اتماسك وأجبت بكل ثقة:

نفسي اكون واحد من العاملين بمحطه حضرتك.. اجابني بهدوء:

- واشمعني محطتي انا بالذات يا استاذ أدهم؟

جاوبته بصدق: لأني حاسس إني أقدر اثبت نفسي هنا، ولأني عارف انكم بتهتموا بالشباب فعلًا مش بالمذيعين اللي خلاص راحت عليهم ولسه ماسكين في كراسيهم..

احسست بنظرة اعجاب تلمع في عينيه لوهلة.. ثم قال:

- ماشي يا استاذ أدهم.. عاوز من حضرتك تستني ثواني.. ثم مال بجانبه ليتحدث في الدكتافون:

- ابعتيلي اللي بعده في الكشف.. فسمعت صوت السكرتيرة تجيبه بالموافقة..

انتظرت ثواني.. لينفرج الباب عن أجمل من رأيت في حياتي.. كانت هي.. كانت أروي.. لم أدر وقتها انني انظر لمن ستكون الاميرة المتوجه على عرش قلبي.. دخلت الى المكتب حامله معها ازهار الربيع وزقزقة عصافير الجنة.. سألها استاذ وجدي عن اسمها فأجابت بكل رقة:

- اروي عبد المجيد..

اشار اليها بالجلوس وحادثها قليلًا.. لم استمع لحرف من حديثهم، فلقد كنت مشدوهًا لعيناها الخضراوتين.. رأيت فيهما مروج الاندلس وحدائق بابل ومزارع بلاد الشام المترامية الاطراف.. انتبهت فجأه على صوت استاذ وجدي يناديني قائلًا:

استاذ أدهم.. المفروض دلوقتي ان حضرتك ضيف للأنسة أروي في برنامجها..

واتجه لـ أروي قائلًا: اتفضلي حضرتك معاكي أربع دقايق تساليه فيها وتبدأي معاه حوار..

ثم اقرن قوله بالفعل ونظر الى ساعته.. فتسرعت أروي ونظرت الى وسألتني بكل مرح:

اهلًا وسهلًا بضيفنا العزيز.. ممكن تعرفنا بحضرتك؟

صمتت لمده ثواني وانا عاجز عن الكلام.. ثم كمن يتعلم الكلام قلت: اسمي.. أدهم... أدهم عبد الرحمن.. خريج.. خريج اعلام جامعه القاهرة.. دفعه السنة دي..

بعدها حذرها استاذ وجدي وقال: باقي 3 دقايق يا انسه أروي.. استكملت أروي الحوار معي وكان يبدو عليها انها تواجه ضغطًا عصبيًا هائلًا.. فهاهو مغفل يتسبب في تضييع فرصتها في نيل الوظيفة التي تحلم بها.. لم تجد أروي وقتًا كافيًا لبدء حوارٍ مفيدٍ بسبب عدم تركيزي وشرودي في عيناها الخضراوتين تلك.. أعلن استاذ وجديٍ في النهاية ان وقتها قد نفذ.. ثم طلب مننا تسليم ملفنا اليه على وعد بالإتصال بنا في أقرب وقت.. علمنا وقتها أننا لن يتم قبولنا.. اعطيناه ملفاتنا في حزن وخرجنا نجر أذيال الخيبة.. لأجد استاذ وجدي يناديني بصوت عال:

استني انتا عندك يا استاذ ادهم!!

نظرت مندهشًا اليه وبفعل لا ارادي نظرت أروي ايضًا اليه.. فرد عليها:

لأ اتفضلي انتي.. انا عاوز استاذ أدهم بس..

نظرت الى أروي نظرة دهشة مختلطة بحزن عميق.. واكاد اجزم اني رأيت عينيها تترقرقان بالدموع.. قاطعني نداء استاذ وجدي للمرة الثانية فاضطررت للذهاب اليه مرة ثانية وخرجت أروي من المكتب وقد اخذت معها كل البهجه والسرور من المكان..

جلست بكل خوف امام استاذ وجدي منتظرًا اولي كلماته.. تقطب جبينه.. وبدا منغمسًا في تفكير عميق.. ثم فجأه قهقه ضاحكًا وارتمي بظهره للوراء قائلًا:

مش تقول يابني انك من عيلة الحلواني؟؟ وسايبني امتحن فيك واسألك واكلمك.. ثم أكمل قائلًا:

تقرب ايه بأه لكمال الحلواني؟؟ اجبته هامسًا: كمال الحلواني يبقي عمي..

أكمل ضحكته بصوت عالى ابن الـ.. كمان طلع عمك.. كمال دا بعتبره اكتر من أخويا من ايام ما كنا لسه في اولي كليه.. وياما اكلنا مع بعض عيش وملح وكشري من وسط البلد كمان..

ثم أكمل بعد ان اخذ نفسًا عميقًا.. خلاص انتا كده معانا في المحطة يا أدهم..

قاطعته بحزم لأ انا اسف يا استاذ وجدي.. انا مقدرش اتوظف بالطريقة دي.. مع كامل احترامي لحضرتك بس انا عاوز اتوظف في وظيفة بحقي فيها مش بسبب عيلتي..

قاطعني استاذ وجدي تلك المرة قائلًا يا بني اصبر بس.. انتا من الاول عاجبني وداخل دماغي وحاسس أنك متحمس للشغل.. السبب كان في البنت اللي دخلت.. معندهاش ثقة في النفس مع انها امورة وشكلها اجتماعيه..

اجبته قائلًا على فكرة انا السبب اني ضيعت عليها الفرصة دي.. جالى صداع مفاجئ ساعتها ومقدرتش أركز معاها في الاجابة.. ثم اكملت قائلًا من فضلك.. أنا

مش هقدر اوافق فعلًا وانا عارف اني كنت سبب في ظلم البنت المسكينة دي..

نظر لي استاذ وجدي ثم ضحك قائلًا ماشي يا سي أدهم.. من اولها شروط.. علشان خاطر عمك بس.. انا قررت اعينك انتا والبنت المسكينة دي.. ارتحت كده يا سيدي؟

ابتسمت وشكرته قائلًا شكرًا لحضرتك يا استاذ وجدي.. مش هقدر انسالك الجميل دا..

فرد وهو محتفظًا بابتسامته الودوده: بس متنساش تسلملي ع الواد كمال.. وقول له وجدي بيقولك عدي عليه عشان مستنيك في دور طاولة زي زمان..

ضحكت واجبته حاضر من عنيا يا استاذ وجدي.. تؤمرني حضرتك بحاجة تانية؟

رد قائلًا خلاص كده يا أدهم.. وتيجي من اول الاسبوع الجاي عشان تستلم وظيفتك..

شكرته مرة اخرى واثناء خروجي من المكتب سمعت صوت السكرتيره يعلن ان باب التقديم قد اغلق وان الوظيفة لم تعد شاغرة.. لأواجه نظرات الحقد المسلطة من عيون الشباب حولي كالأسهم تخترق جسمي وتحوله لمصفاه ممتلئة بالثقوب..

اتذكر ذلك اليوم جيدًا.. فبعد ان خرجت من الشركة طلبت من السائق ان يرحل الى البيت واخبرته اني سأستقل اتوبيس النقل العام.. لم اعطه وقتًا ليبدي دهشته من ذلك القرار الغريب حسب وجهه نظره.. وبدأت فعلًا بالسير نحو محطة الاتوبيس.. جاء الاتوبيس المتجه الى مدينه نصر فركبته وجلست في اول مقعد شاغر صادفني في عدم اكتراث بمن حولي.. وكانت المفاجأة بعد ذلك ايجادي لتلك الفتاة أروي جالسه امامي في صف المقاعد التالى لصفي.. ويبدو عليها الشرود فلم تلحظني مثلما لم ألحظها.. تمتمت في سري رب صدفة خير من ألف ميعاد.. لحسن حظي.. لم يظل الراكب العجوز المجاور لها طويلًا في مكانه ونزل بعد محطتين.. فأسرعت انا للجلوس بجانبها قاطعًا الطريق على فتي يبدو على ملامحه الخنوثة مما يرتديه من ملابس مستفزة بألوان فاقعه، وشعر مصفف بطريقة لا تجرؤ أي نعجة لديها أدني ذرة من الكرامة أن تصفف فروتها مثله.. تفاجئت أروي بسرعة جلوسي بجانبها.. ثم أدارت وجهها نحوي.. وما إن رأتني حتى تعرفتني.. ليبدو على ملامحها الغضب وكأنها ستصرخ بوجهي.. وقبل ان تنبس بحرف واحد.. اسرعت قائلًا:

في البداية انا اسف جدًا على اللي عملته في المحطة انهارده.. كنت تعبان شوية ومن سوء حظك أنك جيتي وقتها.. مقدرتش اقول كلمتين على بعض ساعتها.. بس دلوقتي بقولك انا اسف وأنك اتعينتي في الوظيفة يا انسه أروي صمتت لثوانٍ غير مصدقة لما سمعته بعدها بدأت ملامحها في التحول للسرور.. ثم ابتسمت قائلة:

يعني كده انا بقيت مذيعه في المحطة؟؟

اجبتها مذيعه تحت التمرين زي حالاتي.. بس اه.. تقدري تقولي أنك بقيتي مذيعه في المحطة..

احسست بوجهها وكأنه صار صورة لشخصيات الكرتون من فرط السعاده.. ووجدتها تتكلم بكل راحة الحمدلله.. اصلك مش عارف انا كان نفسي ابقي مذيعه في الراديو من امتي.. دانا كنت اقعد عيلتي كلها قدامي واعمل معاهم حوارات وهمية كأني مذيعه و كده

اجبتها مصطنعًا عدم التصديق يا سلاااام؟

اجابتني بصدق: اه والله.. حتى كنت امسك فرشاه الشعر و.. اخذت في استكمال حديثها بكل اريحية وشردت انا في عينيها الخضراوتين.. وحينها احسست بشرارة الحب الاولي تشعل النار في قلبي..

ادهم؟؟؟ مالك؟؟؟ اعادني نداء أروي الى ارض الواقع بعد ان شردت في ذكرياتي قليلًا.. عدت لأجدها تخبرني ان عم خالد انتهي من اعداد كوب النسكافية.. ثم قالت:

ايه اللي واخد عقلك تاني؟؟ اجبتها:

لأ مفيش مشكلة، كنت بفتكر بس اول مرة اتقابلنا ازاي ثم اكملت بحنان فاكرة حصل ايه يومها يا حبيبتي؟

ضحكت ضحكتها الملائكية ثم اردفت: طبعًا.. وهو دا يوم يتنسي.. كنت مدهول دهولة سودا زي دلوقتي كده.. ثم ضحكت ضحكة طويلة.. فأجبتها بضيق طفولي: مدهول.. ماشي يا ستي كتر خيرك..

اجابتني بدلال:

ايه يا ادهم.. بهزر معاك.. طب اقولك بأه.. بعشق دهولتك دي.. ارتحت يا سيدي؟؟

اجبتها في حب ارتحت يا سيدة سيدي..

ضحكت ثانية ثم قالت طب ياللا عشان الضيف قرب يوصل ولازم ييجي يلاقيك اسد قدامه.. دا محمود الشربيني مش اي حد..

قلت لها في ثقة:

على نفسه.. انا انهارده هوريه مين هوا أدهم عبد الرحمن.. يا ويله يا سواد ليله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

دلفت لأستوديو 6 حيث يتم تسجيل برنامجي الإذاعي لمحات تاريخية.. وما أن دخلت حتى وجدت الاستوديو خاليا.. تبًا.. لم يأت محمود الشربيني بعد.. كم رغبت في أن اجعله ينتظرني طويلًا.. ولكني الآن مضطر لإنتظاره.. كانت هذه البداية.. نقطة لصالحه قبل ان تبدأ حتى المباراة.. ولكن هيهات.. سوف يري منّي ما لم يستطع اي مذيع او مقدم ان يفعله معه.. طيلة عمري أكره المتكبرين والمغرورين.. ومن وجهه نظري اسوأ المتكبرين هم من يتكبرون بعلمهم على الاخرين.. بدلًا من ان يشاركوهم هذا العلم.. مهما كان مقداره، كم سيكون مقارنةً بالعلوم اللانهائية الموجوده في الكون؟؟ لن يستطيع بشري ان يجمع علوم الكون في جوانب عقله.. اي خلايا رمادية تستطيع اختزان علوم الانسانية الممتدة طوال كل تلك القرون؟ بل إن الانسان عاجز عن معرفة ادق التفاصيل عن الجسم البشري ذات نفسه.. عاجز عن معرفة كينونته.. ما دليله على انه هو؟؟ سقراط قالها في أحد دروسه.. اعرف نفسك.. فهل نعلم أنفسنا حقًا؟؟ هل نعلم ما بعقلنا الباطن من رغبات دفينه ومشاعر متطرفة؟ بعيدًا عن اننا لا نعلم بدقة عدد خلايا الجسم او حتى كيفية تكوين تلك الخلايا.. كلها اشياء لا يعلمها الا الله.. فلما التكبر بما نظن اننا نعلمه؟

قطع تأملي صوت طرقات على الباب.. اعتدلت وانتبهت في مجلسي.. وأجبت ادخل.. فوجئت انه كان عم خالد، فتنهدت قائلًا: خضيتني يا عم خالد.. افتكرتك الضيف.. حد جه بره؟.. اجابني بالنفي، فطلبت منه أن يرحل ووعدته بأن اطلب المشروبات وقت مجئ الضيف.. شكرني وذهب الى الكافيتريا..

انتظرت لمده ربع ساعة كامله، قضيتها في الاستماع للبث المباشر للمحطة، ودندنة الحان الاغاني التي يتم بثها، وبعد ان انقضت تلك الدقائق، وجدت من يطرق الباب طرقتين ثقيلتين.. فأجبت بخمول ادخل يا عم خالد.. فُتح الباب فوجدته محمود الشربيني بسترته الكحلية المعتاده وربطه عنقه البنية ومعه استاذ ممدوح رئيس المحطة.. دلف محمود بكل هدوء وثبات الى الاستوديو، وتبدو على ملامحه التأفف وكأنه يخطو بأقدامه الى بالوعه او ما شابه فلم يحاول ان يرسم اي ملامح اهتمام على وجهه الذي يشبه وجه الحصان.. وبجانبه أستاذ ممدوح كتاجر العبيد الذي يعرض سباياه للزبائن..

منورنا والله يا محمود بيه.. انهارده يوم تاريخي يستحق ان يُسطر في تاريخ القناة المتواضع قالها ممدوح بنفاق واضح.. ولم يبد على الضيف اي بادرة تأثر او تغيير في ملامحه التي كستها التجاعيد.. فقد كان نفاق استاذ ممدوح واضحًا للعيان يراه الاعمي نفسه.. ولقد كانت تلك طريقة استاذ ممدوح دائمًا.. النفاق والموالسة لمن هو اعلى منه شأنًا.. كم أكره هذا الكائن.. وكم أكرهه منذ ايام عملي الاولي في تلك المحطة.. منذ ان رأيته يرمق أروي بنظرات قذرة من وراء زجاج نظارته السميكة.. حينها لم يمنعني من تحطيم تلك النظاره على وجهه غير احترامي لوجود أستاذ وجدي معنا في ذلك الوقت..

اتجه الضيف الى مكانه.. واسرعت انا الى مكاني بعد ان رحبت به.. واجاب ترحيبي بكلمات مقتضبه.. حاولت ان اكسر حاجز الجليد فيما بيننا.. فرحبت به مرة اخرى.. فرد بكل عجرفة:

خلاص مش شغلانة.. عاوزين نخلص عشان ورايا مواعيد تانية اهم من دا.. ابتلعت الاهانة بصعوبة.. هاهو يواصل تسجيل النقاط ومازالت المباراة لم تبدأ بعد.. رغبت في الرد عليه بأن اسأله اذن ما هو سبب وجوده هنا إذا لم يكن برنامجي بتلك الاهمية عنده.. لكن كظمت غيظي منتظرًا الوقت المناسب.. سوف يأتي وقت الرد عندما يبدأ البرنامج واقوم بإحراجه على الهواء مباشرة وعلى مسمع من جميع متابعي البرنامج في انحاء الجمهورية..

سألته عما يريد ان يشربه.. فاجاب بكل صلف: مبشربش حاجة قبل الشغل.. اضطررت لإبتلاع سخافته في التعامل.. لا تقلق.. سوف يأتي لحظة الرد على كل تلك السخافات.. افهمته بسرعه موضوع الحلقة وطريقة ادارة الحوار والخطوط العريضة للحلقة.. ظل يستمع لي لمده دقيقتين بكل ضجر حتى حان موعد بداية البرنامج واستمعنا لموسيقي المقدمة المأخوذة من احدي سيمفونيات الموسيقار الكبير عمر خيرت.. لقد أطلق الحكم صافرة البداية.. فالويل لك يا محمود!!

دنوت بفمي من الميكروفون وبدأت ديباجة البرنامج قائلًا:

اهلًا وسهلًا بيكم مستمعينا الاعزاء في برنامجكم لمحات تاريخية.. انهارده يشرفنا في الاستوديو المؤرخ التاريخي الكبير الاستاذ محمود الشربتلي.. عفوًا محمود الشربيني..

هبّ محمود الشربيني صامتًا في مقعده ونظر لي شزرًا.. ولكنه لم ينطق وانتظر دوره في الكلام حانقًا.. كتمت ضحكاتي بداخلي.. ها انا أسجل اول نقطة لي في المباراة.. لقد انتظرت تلك اللحظة طويلًا.. والآن حان وقتي ان أمطر شباكه بالاهداف.. اكملت حديثي قائلًا:

موضوع حلقتنا انهارده عن حاجة بقالها فترة كبيرة منتشرة في الاوساط العلمية المتعلقة بدراسة التاريخ.. وقدرت انها توصل لكتير من افراد الشعب في مجتمعنا الحالى وفي المجتمعات الاجنبية برضو.. انهارده بنتكلم عن الموضوع المثار بخصوص أصل الاهرام.. هل اللي بناها اجدادنا الفراعنه العظماء فعلًا زي ماحنا عارفين ومتأكدين.. ولا اللي بناها اليهود زي ما هم بيروجوا للاشاعه دي دلوقت.. ونسأل ضيفنا الاستاذ محمود بخصوص الموضوع دا.. تعليق حضرتك ايه يا أستاذ محمود؟

بدأ محمود الشربيني كلامه قائلًا بكل فخامة:

احب اعرّف نفسي الاول.. انا استاذ محمود الشربيني.. محلل تاريخي وسياسي وكبير اساتذة قسم التاريخ بجامعه (..) وحاصل على العديد من شهادات الدكتوراة الفخرية من جامعات عريقة عديدة كجامعه هارفرد وييل الامريكيتين على سبيل المثال.. واعمل حاليا كمؤرخ للوقائع التاريخية المتعلقة بالتاريخ المصري وجاري

الاعداد لكتابي الخامس بعنوان تاريخ الدولة الوسطي في مصر الفرعونية.. دراسة وتحليل وفيه اكشف اسرارًا لم تُعرف من قبل عن تلك الفترة الهامة من تاريخ مصرنا الحبيبة..

قاطعته قائلًا: بالتأكيد حضرتك أشهر من نار على علم.. دلوقتي بالنسبة لموضوع الاهرام.. هل فعلًا الاهرام بناها اليهود زي ما بيقولوا؟؟

رد بكل حنق: بعد اذنك متقاطعنيش تاني وانا بتكلم..

اجبته مصطنعًا الاسف: مش قصدي يا استاذ محمود بس المستمعين متشوقين انهم يعرفوا رأى حضرتك الهام في الموضوع الخطير دا.. قلتها بكل واقعية ومازالت ضحكاتي تتردد بداخلي.. خطتي تسير على ما يرام.. لن اتركه ينال ما يريده مني.. أكمل محمود كلامه غاضبًا وقد تخلي عن لغته الفصحي المنمقة: بالنسبة لموضوع الاهرام.. اولًا أحب اقول ان التاريخ يُكتب بأيدي المنتصرين.. واغلب تاريخنا اللي احنا متأكدين منه وبنردده بكل جعجعة في كل مكان.. كان فيه فترات عديده تم تحريفها وتزويرها.. كان في زمن الفراعنه اوقات كتيرة مظلمة.. مش طول الوقت كانوا بيبنوا في مسلات واهرام ومعابد.. كان فيه اوقات كلها ظلم وجبروت وفساد.. ومصر عرفت اوقات تعرضت فيها البلاد للنفوذ الأجنبي، فحكمها غرباء عنها، تمثلوا في مجموعات متتالية من الحكام الليبيين والنوبيين والآشوريين وأخيرًا الفرس..

سألته بكل تحدي متعمدًا مقاطعته مرة اخرى: يعني دا معناه ان الشائعه ممكن تكون صحيحة؟

اجاب: لأ طبعًا.. لأن اي حد بيقرا في التاريخ.. حيشوف ان الصهاينه ياما افتروا على التاريخ بافتراءات كاذبة وعندهم قدرة كبيرة على تشويه الحقائق لخدمة مصالحهم القذرة.. انا هنا بتكلم عن الصهاينة مش اليهود.. لأن اليهود هم اهل دين سماوي زيهم زينا وزي الاخوة المسيحيين.. لكن الصهاينة أخطر بكثير.. لأنهم بيحاولوا يشوهوا التاريخ ويحولوه لصالحهم.. بيحاولوا يقنعوا العالم ان الصهيونية واليهودية شئ واحد.. والموضوع دا ياما اتكلم فيه استاذنا الكبير عبد الوهاب المسيري في كتبه الشديده الاهمية عن الصهيونية العالمية وحركات الصهيونية الكبري..

التقط انفاسه ثم أكمل قائلًا: وموضوع بناء اليهود للاهرام كعبيد دا نوع من التشويه اللي مازالوا بيمارسوه في حق التاريخ، فبعد ما قدروا انهم يضخموا من موضوع الهولوكوست.. قدروا يقنعوا ناس كتير في بلاد بره انهم فعلًا بناه الاهرام.. انما كل الدلائل بتقول غير كده.. اغلب الحقائق التاريخية بتقول إن الأهرامات اتبنت خلال الفترة من2630 الي1530 قبل الميلاد، يعني قبل ما ييجي اليهود الى مصر اصلًا بمئات السنين، وأن اليهود لما جاءوا الى مصر، كانوا جماعات من الرعاة، ولم يكن ليهم أدني معرفة بعلوم العمارة اوالهندسة اوالفلك اللي استخدمها الفراعنه في تشييد وبناء الأهرامات.. دا غير كتير و كتير من الشواهد اللي تثبت كده.. زي مثلًا..

قاطعته انا للمرة الثالثة متعمدًا: بعد اذنك يا استاذ محمود نروح لفاصل سريع ونرجع تاني نكمل كلامنا في الموضوع الخطير دا.. خليكو معانا وانتظرونا خلال دقائق.. بعـــد الفاصل

انهيت الحوار بسرعة وضغطت زر غلق الميكروفون.. ليبدأ محمود الشربيني في الصياح:

انتا ازاي يا بني ادم تكلمني بالطريقة دي.. انتا متعرفش انا مين؟؟ اه صح شكلك متعرفنيش.. مش عارف تقرا اسمي صح؟؟ انتو فاكرين نفسكو محطة معروفة بجد ولا ايه؟؟ دانتو اللي بيسمعكو يادوبك قرايب عمال المحطة بس..

ارتفع صوته بالصياح مما استرعي انتباه العاملين خارج الاستوديو.. ووجدت استاذ ممدوح يدلف مسرعًا داخل الإستوديو وعلى وجهه اقصي امارات الهلع والتوتر.. اتجه الى محمود سريعًا محاولًا تهدئته بكلامه المعسول الموالس: جري ايه يا استاذ محمود.. اعصابك.. حصل ايه قوللي؟

اجابه محمود بكل غضب: اتفضل شوف الاستاذ اللي جايبه يعمل الحوار معايا.. مش عارف هو جايب مين في برنامجه الحقير دا..

غضبت لتلك الكلمة ايا غضب.. واسرعت بالرد: احترم نفسك يا استاذ محمود.. انتا هنا في مكان عمل

اصفرّ وجه استاذ ممدوح وبادر محمود بالرد غاضبًا: هو فين العمل دا؟؟ قاعد كل شوية تقاطعني.. وغلطت في اسمي.. تغلط في اسمي!! انا اسمي دا كفاية يتقال في اي جامعه عربية او اجنبية تلاقي العميد ذات نفسه جاي مخصوص ليا

اجاب استاذ ممدوح وهو يهز رأسه موافقًا: اكيد اكيد يا استاذ محمود.. بس هدي اعصابك انتا بس.. تعالى اتفضل عندي في مكتبي اشرب حاجة تروق بيها نفسك واوعدك انا بنفسي هعاقب الولد دا

ذهب الاثنان الى مكتب استاذ ممدوح بينما تسمرت واقفًا في مكاني يملؤني الغضب والحنق.. لقد كنت انا الطرف الاقوي طوال الحلقة.. ولكن اتي ذلك السخيف ممدوح ليفسد كل ما فعلته.. كم أكرهه فعلًا!!

دلفت أروي للاستوديو مسرعةً تجاهي..

- ايه اللي حصل يا أدهم؟؟ ايه كل الدوشة والزعيق دا؟

- لا مفيش حاجة.. سوء تفاهم مع اللي اسمه محمود دا.. انا كنت مجهز نفسي لكده من الاول.. هو راجل مغرور اساسًا وبيحب يتنطط على الخلق.. وانتي عارفة انا مش بطيق الناس اللي زيه كده

اجابتني أروي بكل هدوء: ايوة عارفة يا حبيبي.. بس انتا في شغل هنا.. لازم تتعلم تمسك اعصابك مهما كان اللي قدامك مستفز.. مينفعش تتنرفز عليه.. مش كده برضو؟

اقنعتني بكلماتها وإن كانت قليلة.. انتبهت انني خلال حماسي لتلك الحلقة قد تعديت قواعد المهنية واخطأت في حقي اولًا قبل ان اخطئ في حق المحطة.. هدأت قليلًا بعد كلمات أروي.. والتفت اليها قائلًا:

شكرًا يا حبيبتي.. مش عارف من غير كلامك دا كنت هعمل ايه.. نظرت لي بحنان وقالت:

كنت هتروح في ستين داهية.. ثم ابتسمت فبادلتها الابتسامة..

قطع تلك اللحظة الرومانسية دخول عم خالد لينبئني بأن الاستاذ ممدوح يرغب في ملاقاتي بمكتبه في أسرع وقت.. واختتم كلامه بجملته المعهودة يجعله خير بإذن الله يا استاذ أدهم...

نظرت لي أروي بكل قلق.. فأجبتها ساخرًا كنتي بتقولي هروح في ستين داهية.. اديني رايح اهو..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

تسارعت خطواتي عابرًا تلك الردهة المؤدية لمكتب الاستاذ ممدوح، لم أكن مسرعًا بسبب الخوف من توبيخه لي أو لشئ من هذا القبيل، فأنا أعلم مدي كرهه لي وتعنته الواضح أحيانًا في كثير من معاملاته معي أو مع أروي.. لكنني لم أرغب في جعل ما حدث بيني وبين محمود الشربيني سببًا في إساءة معاملتي في المحطة.. وصلت لمكتبه في دقائق معدودة.. وما أن خطوت بإتجاه المكتب حتى شاهدت وجه مديرة مكتبه وقد اعتراها القلق.. فهمت ما أنا مقبل عليه.. بسملت في سري وطرقت باب مكتبه..

ادخل.. ارتفع صوت الاستاذ ممدوح آذنًا لي بالدخول..

دلفت الى مكتبه وتوقفت أمامه منتظرًا سيل إهاناته المزعجة.. نظر لي بحده ثم بدأ كلامه قائلًا:

- ممكن تفسر لي ايه اللي حصل في الاستوديو دا؟؟

اجبته بكل برود: مفيش حاجة حصلت يا استاذ ممدوح.. الراجل شكله مش عارف طريقة التعامل في الراديو بتبقي ازاي.. مش هينفع يتكلم كتير في الراديو خصوصًا اننا عندنا فواصل اعلانية وأصلًا وقت البرنامج كله على بعضه نص ساعة بس.. لم أجد حججًا أقوي مما قلت، وبالرغم من علمي أنها حجج واهية لن تصمد في نقاش مطول، لكني صممت على رأيي ذلك..

اجابني بعصبية: بس هو اشتكي من أنك قريت اسمه غلط وأنك كنت بتقاطعه في الكلام.. ليه بأه؟ اكملت بنفس البرود: غلطة الاسم دي كانت بسبب الورق اللي اتقدم لي.. الخط مكانش واضح بس انا لحقت نفسي وقلت الاسم صح بعدها.. اما مقاطعته في الكلام دي معتقدش انها غلط ولا حرام..

بدأ الاستاذ ممدوح في التراجع.. وظهر ذلك في نبرة صوته التي بدأت في الاستكانه.. لم امنع نفسي وقتها من تخيله وكأنه أحد التجار اليهود من افلام الابيض والاسود القديمة بطريقة كلامهم ونظراتهم المستكينه التي تتصنع الوداعه وتخفي ورائها تلًا من النفاق والخبث.. كم كان الشبه كبيرًا فعلًا.. امسكت نفسي عن الضحك بصعوبة وانا استمع لما يقوله:

- بس دلوقتي الراجل هددني بأنه هيرفع قضية على المحطة لشعوره بالاهانه الشديدة وغير كده انه موقفنا بقي زي الزفت.. ممكن الراجل دا بعلاقاته يسبب لنا قلق احنا في غني عنه..

كنت قد وصلت لدرجة من الملل تمنعني من مواصلة الحوار مع ذلك الكائن القمئ.. انهيت حوارنا بجمله واحده.. خلاص شوفو تحبوا تعملوا ايه واعملوه.. انا عن نفسي مش شايف اني غلطت معاه في حاجة.. أسرع ممدوح في الرد بكل شماته:

- طبعًا لازم تتعاقب علشان متكررش اللي حصل دا مع ضيف تاني.. مخصوم منك اسبوع ومفيش حلقة الاسبوع الجاي.. نبقي نحط بدلها ساعة كوكتيل اغاني خفيفة وخلاص.. يا ريت تتعلم من اللي حصل دا..

تسبب قراره التعسفي ذلك في مضاعفه كراهيتي له وبغضي لشخصيته الدنيئة.. لم انس كيفية وصوله لكرسي مدير المحطة.. بعد ان نلت وظيفتي انا و أروي في المحطة.. لم يدم أكثر من ستة أشهر حتى داهم استاذ وجدي مرضًا شديدًا

تسبب في اصابته بشلل تام.. كم حزننا جميعًا في المحطة لما حدث وقتها.. فقد كان الاستاذ وجدي كالأب الحنون لجميع العاملين بالمحطة.. وكان مداومًا في السؤال على من يمرض، ويعين من يحتاج للاعانة.. وكان من كبار المساهمين في حفل زفاف محمود رحمه الله ابن عم خالد.. وقتها بكي عم خالد من الامتنان وظل يردد الدعوات بالبركه والهناء لأستاذ وجدي وعائلته الكريمة.. وبعد ان شُلّ الاستاذ وجدي اضطر مجلس ادارة المحطة ان يختار من يتولي منصب مدير المحطة بدلًا من الاستاذ وجدي.. لم يكن ممدوح هو الخيار الاول.. بل كان أحد اعضاء مجلس الادارة هو الاوفر حظًا بذلك المنصب لما فيه من مميزات وامكانيات تؤهله لتولي ذلك المنصب الهام.. إلا ان نفاق ممدوح وقدراته العالية في التزلف والتقرب من ذوي المناصب الهامة بكلامه المعسول وهداياه الفاخرة جعله الاجدر بنيل المنصب.. وتلك هي آفة بلدنا.. المحسوبية والنفاق..

انتهي حواري مع الاستاذ ممدوح واستأذنت منه للانصراف.. خرجت من مكتبه متبرمًا مما حدث.. ولكني سرعان ما حاولت الابتسام حيث وجدت أروي منتظرة بجانب مديرة المكتب تتحادثان حديثًا خفيفًا.. وما أن رأتني أروي حتى انهت حوارها بابتسامه مع مديرة المكتب واتجهت الى مهرولةً..

- حصل ايه جوا طمنّي عليك؟

- متقلقيش.. حوار وخلص خلاص..

- لأ قوللي بجد.. شكلك زعلان

- والله مفيش يا أروي.. مجرد خصم كام يوم على جزاء بسيط..

ارتسم على وجه أروي الحزن واردفت:

- خلاص متزعلش، ربنا على الظالم والمفتري.. وانتا بعد كده حاول تبقي تمسك اعصابك كويس..

حاولت تغيير دفة الحديث.. فابتسمت قائلًا:

خلاص سيبك من اللي حصل.. اكلتي ولا لسه؟

ضحكت وقالت: اكل ايه دلوقتي.. هوا وقته؟

اجبتها ضاحكًا ايضًا: بالعكس دا هو وقته اوي.. انا بحب اكل بعد ما مديري يهزأني ويخصم مني كده

ابتسمت أروي فتكونت غمازتيها المحببتين الى قلبي.. ثم اجابت:

- ماشي انا موافقة.. انا فعلًا مأكلتش من الصبح.. ياللا بينا

ذهبنا الى الكافيتريا لتناول الشطائر.. فقابلنا عم خالد بوجهه البشوش كالعادة.. وسألني بكل لهفة:

هاه يا استاذ ادهم.. عمل معاك ايه الظالم اللي اسمه ممدوح دا؟

اجبته متقلقش يا عم خالد.. محدش يقدر يعمل لي حاجة

ضحكنا سوية وأكمل كلامه قائلًا: مش قلقان عليك يا استاذ أدهم.. انا قلقان على اللي اسمه ممدوح.. الظلم اخرته وحشة.. الراجل دا هيشوف ايام سودة.. وقول عم خالد قال.. ثم سكت وأنهي كلامه كالعادة بنفس الجملة المحببة اليه..

يجعله خير بإذن الله يا استاذ أدهم.. شكرته على الشطائر ثم غادرت انا وأروي لنستقل الحافلة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد انتظار دام أكثر من ربع ساعة بسبب عدم وجود مواصلات خالية والزحام الخانق.. استطعنا اخيرًا ركوب الاتوبيس.. منذ اول مرة ركبت مع أروي فيها الاتوبيس بالصدفة حتى تكررت الصدف.. وسرعان ما علم كل منا ان تلك الصدف ليست اغلبها بترتيب القدر.. ولكنها تكون احيانًا بترتيب أحدنا لمقابلة الاخر.. حتى صارحتها في يوم من الايام بحقيقة مشاعري تجاهها.. ومنذ ذلك الحين وصرنا معًا في كل مكان وكل وقت.. ومنذ حوالى شهرين استطعت ان اقابل والدتها لأتقدم لـ أروي واخطبها رسميًا.. في ذلك اليوم جلست انا وعمي كمال بالرغم من عدم تقبله قليلًا لذلك الارتباط في البداية.. وقابلنا خالها وأمها.. حيث ان والدها توفي منذ ان كانت طفلة في الثامنه من عمرها.. وتلك نقطة مشتركة اخرى بيننا.. فأنا ايضًا يتيم الابوين.. فبعد ان ماتت امي.. اضطر والدي رحمه الله وبعد ضغوط عديدة من اعمامي وجدتي للزواج من احدي اقاربه لتربيتي.. وظلت زوجة ابي بالفعل خير راع لي حتى ماتت مع والدي في حادثة انقلاب سيارتهم وانا ابن العاشرة من عمري..

- سرحان في ايه يا أدهم؟

قطع سؤال أروي سيل الذكريات لأجيبها:

- بفتكر حاجة جميلة كده.. فاكرة لما قعدت جنبك اول مرة في الاتوبيس؟

ابتسمت أروي وقالت:

انتا انهارده طالبه معاك ذكريات اوي.. ايوة يا سيدي فاكرة برضو.. ومن ساعتها مش عارفة أخلص منك

ضحكت واجبتها في هدوء: واوعدك مش هتعرفي تخلصي مني

اجابت بكل رقة وقد نظرت الى بعيناها الخضراوتين: و مين قاللك اني عاوزة أخلص منك؟

تنحنحت وقلت: احم.. طب مش وقتها رومانسية احنا في الاتوبيس.. وانتي شايفة ماشاء الله الناس راكبين فوق بعضهم وكل واحد رامي ودنه في حجر اللي جنبه

اجابتني بهزة رأس دلالة ع التوكيد، ثم اضافت: فعلًا.. حاجة مقرفة.. تحس اننا في برطمان مخلل ومقفول علينا.. انا خايفة الاقي لمونة معصفرة واقفة جنبي

مثلت الاستنكار وقلت لها باشمئزاز مصطنع: مخلل!! الملافظ سعد يا أروي

ضحكنا سوية واخذنا نتبادل النقاشات الجانبية الهادئة.. ومن حولنا الزحام في الاتوبيس قد صار اشبه بيوم الحشر.. وكأن الراكبين جميعهم يقلهم ملاك الموت المتمثل في سائق الاتوبيس لينال كل منا جزاءه..

بعد برهة من الزمن صعدت امرأة مسنة تبيع اكياس المناديل.. وتنادي بصوت رقيق عسي أن يعطف عليها أحد ببعض العملات الورقية او المعدنية.. بالفعل نالت رزقها من بعض الركاب ثم نزلت بكل هدوء كما صعدت..

ارتفع صوت أحد الركاب خلفي قائلًا:

يادي النيلة.. دي خامس واحدة تطلع تشحت في نص ساعة.. دول ولا كأنهم بيبدلوا مع بعض

ليجيبه راكب اخر:

لأ و كلهم بتوع مناديل.. خلاص مفيش حاجة ناقصانا غير المناديل يعني؟

انتهي الراكب الاخر من جملته ليجيب عليه -على سبيل المشاركة راكب ثالث يستند على طرف المقعد المواجه لمقعدي:

الناس كلها يا باشا بقت بتبيع مناديل.. عشان لا مؤاخذة الوساخة كترت ف البلد دي

ثم انتبه لوجود أروي بجانبي، فأكمل لا مؤاخذة يا انسة.. كلمة وطلعت غلط

قلت بصوت خافض من بين اسناني: لا مؤاخذة ايه بأه مانتا قلتها..

ثم بدأت النقاشات تدور بين ركاب الاتوبيس وكأنها احدي تلك الحوارات المجتمعية التي يستمر في اقامتها الساسة ورجال الدولة.. ولم نر من بعد اي حوار من تلك الحوارات، حلولًا منطقية او سبلًا لحل المشكلة المطروحة بتلك الحوارات.. هكذا هي السياسة في بلدنا.. نقاشات وتسويفات ومشاكل لا تُحل.. بدأت المناقشات في الاحتدام حول اختلاف وجهات الرأى السياسية بين ركاب الاتوبيس من مؤيد او معارض لقضية سياسية ما.. وكل طرف منهم يبرر لقضيته انها الاصح..

حمدت الله ان بيت أروي قد اقترب، فذلك معناه اقترابي انا الاخر من النزول من الاتوبيس والابتعاد عن كل تلك المهاترات والمشاحنات التي لا ولن تنتهي..

اوصلت أروي الى منزلها وتأكدت من وصولها بسلام.. ثم اكملت طريقي سيرًا الى شقتي.. وما ان دخلت الى الشقة.. حتى ارتميت من الارهاق على أقرب مقعد.. وداهمني النوم حتى صحوت مساءًا على اسوأ خبر سمعته في حياتي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

ارتفع رنين الهاتف المحمول ليخرجني من سباتي العميق.. هرعت للهاتف ونظرت الى شاشته لأجد رقمًا لم اراه من قبل.. ضغطت على زر الرد وقد انتابني القلق.. سألت:

- ألو.. مين معايا؟

رد المتصل بصوت رخيم:

- ايوه يا أدهم.. معاك استاذ عبد الله المحامي وصديق جدك الحاج جمال

ازدادت ضربات قلبي بمجرد سماعي اسم جدي الحبيب الذي افترقت عنه منذ سنوات عديدة.. سألته بقلق:

- اه.. اهلًا بحضرتك يا متر.. خير.. حصل ايه؟؟

سكت استاذ عبد الله قليلًا.. فازداد قلقي.. ثم اجابني بصوت شابه الحزن:

- جدك يا أدهم... تعيش انتا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا اذكر ماذا اصابني وقتها.. كل ذكرياتي عن تلك اللحظة كانت رؤيتي للهاتف ملقي على الارض وقد انتابني ما يشبه الشلل التام.. عاجز عن الحركة.. عاجز عن التفكير.. عاجز عن النطق.. عاجز عن كل ما يمنحني لقب كائن حي.. لم اصدق الخبر في البداية.. انعزلت في عالم اخر يسوده الصمت المطلق.. صدمة رهيبة..

ومازال صوت الاستاذ عبد الله يتردد في الهاتف..

- الو.. الو.. رد عليا يا أدهم ارجوك.. الووو...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكرَمَنِ

ارتفع صوت المقرئ اثناء ترتيله لكلمات القران الكريم.. وتتابعت ايات سورة الفجر على لسانه وكأنها درر منثورة.. غالبت دموعي وحاولت منع نفسي من البكاء اثناء جلوسي في عزاء جدي الراحل.. اتذكر بعدما استفقت من الصدمة وتناولت الهاتف بأيد مرتجفة.. لأرد بصوت مخنوق على استاذ عبد الله..

- ايوه يا استاذ عبد الله.. انا معاك..

رد على الاستاذ عبد الله بكل حزن:

- البقاء لله يا أدهم.. جدك كان راجل طيب وربنا هيرحمه برحمته الواسعه..

سالت دموعي عند سماع الفعل كان مقترنًا بجدي.. مازلت غير مقتنع وغير مصدق.. انني بكابوس اسود.. بالتأكيد هو كابوس.. يجب ان استفيق حالًا.. سألت المحامي وانا في غير وعيي..

- هو جدي مات ازاي يا استاذ عبد الله؟

اجابني: جدك الله يرحمه كان مسافر في رحلة بالباخرة للجزائر.. انتا عارفه بيعشق البحر من زمان.. وبيحب السفر البحري عن اي نوع سفر تاني.. باخرته المفروض اتحركت من مصر امبارح بالليل.. وانهارده الصبح للاسف وصل لي خبر غرق الباخرة ناحية سواحل ليبيا

سألته بلهفة: طب ما هو ممكن يكون عايش؟!

اجابني بأسي.. للاسف يا أدهم.. مش لاقيين اي حد ناجي من الباخرة.. الباخرة غرقت بالكامل ومحدش قدر يهرب من اللي حصل.. البقاء لله يابني..

تحطم الامل الوحيد بالنسبة لي وقتها.. واستمر الاستاذ عبد الله في كلامه الممزوج بالحزن..

- ترتيبات العزاء وكل حاجة انا متكفل بيها.. جدك كان زي أخويا بالظبط.. وكان بيننا عشرة عمر.. الله يرحمه ويحسن اليه..

انتهت المكالمة وانتهي معها جزء من روحي كان قد غالبني الحنين اليه طوال عشر سنوات.. عشر سنوات بأكملها تم ابعادي عن جدي بأوامر من أعمامي وجدتي..

كلاَّ إِذَا دُكتِ الأَرْضُ دَكا دَكا وَجَاءَ رَبُّك وَالْمَلَك صَفًّا صَفًّا

مازال القارئ مستمرًا في تلاوته.. و مازلت اغالب دموعي.. واحاول تعويض ذاتي بتذكر تلك السنوات الجميلة التي لبثت فيها مع جدي العزيز..

كانت عائلة والدي رحمه الله من العائلات الثرية بحق.. تلك العائلات التي يمتلك أفقرها ثروة صغيرة تقارب الملايين من الجنيهات.. لذلك كان حتميًا رفض عائلة ابي لقراره بالزواج من امي رحمها الله.. المولودة بحي شبرا لعائلة من الطبقة المتوسطة، ولكن ابي رحمه الله أحب والدتي حقًا.. ولم يهتم بقرار رفضهم.. وأصر على قراره بالزواج من امي.. وبالفعل تزوجها وانجبوني وللاسف توفت امي بعدها مباشرة.. لأعيش مع أبي وحدنا بدون امرأة ترعانا.. فكان واجبًا عليه الزواج ليجد من يرعاني في تلك الفترة الحرجة.. وقتها اصرت جدتي ان يتزوج ابنه خالته التي ارادت تزويجها له من قبل ولكنه كان يقابل رغبتها بالرفض التام.. وبسبب الظرف الجديد الذي صار فيه.. تقبل وضعه ووافق على الزواج من اجل تربيتي.. وقامت بالفعل تلك السيدة بتربيتي حتى جاء ذلك اليوم المشئوم الذي انقلبت فيه سيارة ابي وزوجته معه اثناء سفرهم على احدي الطرق السريعه في ليلة ممطرة من شتاء ديسمبر.. وكأن الصدفة المدهشة ان يتوفي والدي في نفس شهر وفاة والدتي.. لذلك اشعر بالكآبة فعلًا عندما يأتي الشتاء.. فكل ما اتذكره عنه هو الموت.. وفقدان الاب والام.. لكن الله عوضني خير عوض.. فلقد انتقلت لبيت جدي والد امي.. الذي أصر

على تربيتي.. ووقتها بالفعل اخترت المكوث معه.. كم كانت ايامًا جميلة تلك التي قضيتها في كنف جدي العزيز.. رحمك الله يا جدي..

يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ

ارْجِعِي الى رَبِّك رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً

فَادْخُلِي فِي عِبَادِي

وَادْخُلِي جَنَّتِي

صدق الله العظيم.. الفاتحه..

انتهي المقرئ من تلاوة القرأن.. وانتهينا من تلاوة الفاتحة.. واستعد الجميع للمغادرة.. وقفت في صف المعزيين متقبلًا العزاء والشد على الايدي من اقاربي واصدقائي الاعزاء وجيران جدي رحمه الله.. حاولت التماسك والثبات.. وكم كان ذلك صعبًا.. لقد صرت وحيدًا بالفعل.. كم كنت أفكر في رؤية جدي.. ودائمًا ما كان يمنعني اعمامي وجدتي من ذلك بعد ما حدث.. وكم كنت اقضي الليالى أفكر في ذلك اليوم الذي اخذني عمي كمال فيه من بيت جدي.. المرة الاخيرة التي اري فيها جدي.. وتلمس قدماي ارضيه منزله القديم..

انتظر الاستاذ عبد الله لنهاية العزاء.. حتى خلا المكان من الضيوف.. ثم اقترب بجانبي ووضع يده على كتفي.. وقال:

- شد حيلك يا أدهم يابني.. اعتبرني زي جدك بالظبط.. اي حاجة عاوزها اطلبها مني من غير كسوف..

شكرته واكدت له على ثباتي وتماسكي.. فرد على قائلًا..

- ان شاء الله هعدي عليك كمان اسبوعين تكون استقريت فيهم شوية.. علشان عندي ليك حاجة مهمة لازم تاخدها.. دي كانت وصية جدك الله يرحمه.. اندهشت من ذلك.. ولكني اجبته بالموافقة.. تنور يا استاذ عبد الله.. البيت بيتك..

سألني الاستاذ عبد الله: أبقي قوللي عنوانك فين علشان اعرف اجيلك..

اجبته قائلًا.. العنوان سهل.. حضرتك تنزل في مدينة نصر.. وتسأل عن.. ثم شردت لبرهة من الزمن.. وصمتت.. ثم قلت له.. ولا لأ.. انا قررت اني هعيش في شقة جدي القديمة بشبرا..

اجابني استاذ عبد الله.. على بركة الله.. ان شاء الله اجيلك كمان اسبوعين زي ما اتفقنا..

صافحني ورحل.. لأفكر في قراري السريع الذي اتخذته.. ما كان سبب ذلك القرار؟ لا اعلم حقًا.. ولكنني شعرت بالحنين الى بيت جدي القديم.. ربما كان قرارًا صائبًا في النهاية.. سوف اعود لبيت جدي اخيرًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5

حزمت حقائبي وانتهيت من اعداد كل ما يمكن ان احتاجه للانتقال لبيت جدي القديم - رحمه الله، أبلغت عمي انني قد اتخذت ذلك القرار وانه لا رجعه فيه.. يكفي اغترابي لعشر سنوات عن جدي الراحل بسبب بعض الخلافات بين العائلتين.. واجه قراري بغضب عارم.. لكنني لم اعد طفلًا صغيرًا بعد الان..

وصلت الى بيت جدي القديم بأحد المناطق الداخلية بحي شبرا.. أقف مشدوهًا امام الباب الخشبي العتيق لذلك البيت الذي لم تطأ قدماي ارضه منذ عشر سنوات.. عشر سنوات كاملة لم ار فيها ذلك البيت.. بعد ان كان ملجأي وملاذي.. لم ار فيها وجه جدي يستودعني قبل نزولي الى المدرسة، او وجهه ضاحكًا فاتحًا ذراعيه اثناء عودتي منها.. كل تلك الذكريات الجميلة تذكرتها بمجرد وقوفي امام باب البيت.. مددت يدي الى جيبي واخرجت منه المفتاح.. ذلك المفتاح الذي ظللت محتفظًا به طوال العشر سنوات.. ربما اعود يومًا.. وها قد جاء هذا اليوم.. ولكنه جاء بعد ان رحل جدي عن عالمنا..

ادرت المفتاح في ثقب الباب، فانفتح امامي كاشفًا عن ردهة البيت.. ذلك المكان الذي طالما لهوت به.. تخطه قدماي الان وانا رجل بالغ رحلت عنه طفولته منذ سنين تاركةً بعض الذكريات اللطيفة، وبعض الذكريات المؤلمة كذلك..

كانت الحالة العامة للبيت جيده.. وذلك لأن جدي ظل ساكنًا بالبيت حتى فترة اسبوع مضت.. فلم أجد ترابًا كثيفًا او ما شابه.. بعض الصناديق فقط كانت ملقاة هنا وهناك.. لكن باقي البيت لم اشعر فيه بأي ذرة اهمال او فوضي.. رحمك الله يا جدي.. كنت مثالًا في النظام والترتيب.. تكره الفوضي ايما كره.. وتعشق النظام كعشق النبات لقطرات الماء..

ألقيت بحقائبي في مدخل الردهه.. وامامي يمتد المنزل بمساحته الواسعه وغرفاته الاربع.. غرفتي النوم على اليسار.. وغرفة الاستقبال على اليمين.. وغرفة مكتب جدي في المنتصف.. وقفت متأملًا لباب المكتب.. متذكرًا رؤية جدي جالسًا على مكتبه مدونًا لتجاربه الفيزيائية.. ثم يراني ناظرًا له وصامتًا في رهبة.. فيبتسم ويترك ما يكتبه من اجل مجالستي والتحدث معي.. كم كانت أحاديثه مشوقة.. يحكي لي عن بلاد اخرى لم اراها وعن احداث حدثت منذ مئات السنين فكأني اراها بعيني الصغيرتين.. سقاني جدي حب التاريخ منذ صغري.. وبالرغم من كونه عالمًا فيزيائيًا خبيرًا في مجاله.. إلا ان ذلك لم يمنعه من عشق التاريخ والتعمق فيه وكثرة قراءاته حتى تفوق في درايته بالتاريخ على كثير من الخبراء والدارسين.. اتذكر في يوم من الايام جلس معي يحكي لي أحد حكاياته..

- تعرف يا أدهم.. انا طول عمري بحب التاريخ.. من وانا قدك كده.. كنت اقرا عن التاريخ ايام زمان.. واتخيل اني وسطهم وأني واحد من اللي حاربوا مع صلاح

الدين ودخلنا القدس.. او ارجع لأيام فتح مصر ويستقبلني اهل مصر الاقباط وسط جيش عمرو بن العاص.. تاريخنا جميل اوي.. بس للاسف مين يقدّر كده ولا مين يهتم..

ثم يميل لي ضاحكًا:

- انا والدي كان يتضايق اوي من حبي للتاريخ دا.. وكان دايمًا عاوزني اطلع عالم كبير في الفيزيا.. وانا حققت له رغبته وكنت دايمًا متفوق في مجالي.. بس عمري ما قدرت أنسي التاريخ.. اللي ينسي تاريخه يا أدهم.. ميقدرش يصنع مستقبله..

كنت التهم كلماته التهامه في شوق.. بالرغم من صغر سني وقتها.. إلا اني كنت قادرًا على فهم ما يقول فهمًا تامًا.. وظللت معه لسنوات عديده أصغي لحكاياته المشوقة، حتى صار التاريخ بالنسبة لي تراثًا مقدسًا وجب الحفاظ عليه والاهتمام به ما حييت..

فتحت باب مكتبه وتأملت المكتبة الضخمة التي احتلت جدارًا كاملًا من السقف حتى الارضية.. اتذكر دهشتي عند رؤيتها لأول مرة.. وقتها سألت جدي بكل براءة:

- انتا قريت كل الكتب دي يا جدو؟؟ امتي وازاي؟

يبتسم جدي ويربت على رأسي، ثم يجيب في هدوء:

- لما تبقي قدي في السن ويبقي شعرك ابيض زي شعري.. هيكون عدا عليك وقت كبير اوي.. يكفيك تقرا الكتب دي وقدها كمان مرتين..

ابتسم وانظر له في تحدي طفولي ثم اقول في ثقة:

- اوعدك اني هبدأ اقراهم من دلوقتي وهخلصهم قبل ما أبقي قدك..

ثم اتجهت لأول كتاب يصل لمستوي يدي وسحبته.. ثم قرأت عنوانه:

نزهة المشتاق في اختراق الافاق لـ ابو عبد الله محمد الادريسي.. لم افهم حرفًا من عنوانه ولكن اعجبني غلافه السميك المزدان بالنقوش الذهبية الجميلة.. وعندما قلبت صفحاته اعجبتني الرسوم الملحقة بكثير من الكلمات المكتوبة على صفحات ذلك الكتاب.. فهم جدي ما افعله.. فضحك كثيرًا واحتضنني واخذ يداعبني قائلًا:

- انتا لو مسكت كل كتاب واتفرجت على الصور يبقي المكتبة دي هتخلص في يومين..

تضاحكنا سويًا وتركت الكتاب لاتفرغ لمداعبته واللعب معه..

انظر الان لتلك المكتبة، لأجد عيناي تنحدر منها الدموع رغمًا عني.. اتجهت الى المكتبة وانحنيت بجسدي حتى أصل الى رفها الاسفل.. بحثت عنه حتى وجدته.. نفس الكتاب.. نفس الغلاف السميك المزدان بالنقوش الذهبية.. لم ينطفئ لونها

الذهبي بعد.. ولكن ما انطفأ هو ذكراه الجميلة وإن مازالت تحتفظ ببعض من وهجها الدافئ في قلبي وعقلي..

رن هاتفي المحمول بغته لينتزعني من تلك اللحظة المؤثرة..

مش عارف ليه.. متونس بيكي وكأنك من دمي.. على راحتى معاكي.. وكأنك أمي مش عارف ليه

علمت انها أروي من قبل ان أرد.. لقد خصصت لها تلك النغمة التي تترجم كل ما اشعر به تجاهها.. ضغطت على زر الرد لينبعث صوت أروي الهادئ من الهاتف.. الو.. ازيك يا أدهم دلوقتي؟

رددت بهدوء مماثل محاولًا الا يظهر تأثري في الهاتف.. الحمد لله يا أروي.. الحمد لله

- وصلت البيت خلاص؟

- اه تمام.. لسه واصل من عشر دقايق بس..

- طب وايه الاخبار؟

- البيت لسه زي ما هو متغيرش.. يادوبك شوية تراب بسيط بسبب الكام يوم اللي فاتوا دول.. مش مشكلة..

- خلاص انا هعدي عليك بكرة الصبح اساعدك في توضيب البيت.. مش هينفع توضبه لوحدك وانتا كده

- لأ متقلقيش يا أروي.. الموضوع مش محتاج تعبك معايا.. ربنا يخليكي ليا..

- متقولش كده يا أدهم.. انا بكرة ان شاء الله الصبح هكون عندك.. مليني العنوان وانا بكرة هتلاقيني قدامك..

ايقنت ان أروي لن تغير رأيها.. كم هي عنيدة.. ولكنني أحب عنادها ذلك.. امليتها العنوان ثم أنهينا المكالمة..

اخرجتني مكالمة أروي من سيل الذكريات العنيف الذي غرقت فيه حتى الاذن.. ولكنني اعلم ان ذلك السيل سيستمر كثيرًا وكثيرًا.. فكل رقعه من ذلك البيت القديم لي فيها ذكريات ستطرق ابوابي بالتأكيد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح التالي.. اتت أروي بالفعل.. طرقت الباب بيدها الرقيقة ففتحته لها، ليطالعني وجهها المشرق دائمًا.. حتى وان ارتسم بعض الحزن على وجهها، فإنها تظل محتفظه بجمالها الفتان.. ظللت واقفًا لفترة.. فسألتني أروي بكل دهشة:

- انتا هتسيبني على الباب كده ولا ايه؟

انتبهت انني بالفعل كنت واقفًا في مدخل الباب مما يمنعها من الدخول.. فأجبتها بكل احراج:

- لأ خالص.. مش قصدي.. انا بس حبيت اتملي بجمال وشك اللي بقالى كتير مشفتهوش..

ابتسمت أروي واحمر خدها قائلة:

- دايمًا بتعرف تضحك عليا بكلامك دا.. خلاص كفاية هزار.. احنا ورانا شغل..

وقطبت جبينها بشكل طفولي مصطنعه التركيز.. ابتسمت رغمًا عني.. مجرد رؤيتي لـ أروي كان كافيًا للتسرية عن نفسي بعض الشئ.. بدأنا بتجهيز الغرف اولًا.. لم يأخذ ذلك منا اي وقت.. فلقد كانت الغرفة الاولي والتي كان ينام بها جدي الراحل نظيفة ومرتبة بعناية، اما الغرفة الاخرى فيبدو انها لم تستعمل منذ فترة طويلة.. ربما منذ ان رحلت عن البيت.. لذلك كانت الاكثر تأثرًا بالتراب.. ولكن لم يبدو عليها الاهمال كالعاده.. بعد انتهائنا من توضيب الغرفتين.. استرحت قليلًا انا و أروي.. تحادثنا بخصوص العمل وبعض الشئون الاخرى.. اخبرتني أروي بأنها استطاعت ان تحصل لي على اذنًا بالاجازة لمده اسبوعين.. مراعاةً لظروفي الحالية.. اخبرتني بغيظ ممدوح الشديد اثناء اعطائها هذا الاذن.. لم ابالى بذلك.. فأنا وممدوح ندّان الى الابد.. ولا سبيل للمحبة بيننا.. ثم اوصلت الى تعازي عم خالد الحارة.. ووصفت لي حزنه الشديد بعدما علم بخبر وفاة جدي.. وكم الادعية التي دعوها لجدي بالرحمة والمغفرة وحسن الجزاء.. كذلك اوصلت الى تعازي والدتها ودعائها لجدي.. شكرتها على ذلك.. واثناء جلوسنا رنّ هاتفي المحمول.. نظرت للشاشة فوجدت رقم الاستاذ عبد الله المحامي مرتسمًا على الشاشة.. اعتدلت في مجلسي ورددت قائلًا:

- الو.. السلام عليكم يا استاذ عبد الله

- عليكم السلام يا أدهم.. ازيك يابني دلوقتي؟

- تمام الحمد لله..

-الحمد لله.. انا قولت افكرك بمعادنا ان شاء الله.. فاضي الخميس الجاي؟

- اه اكيد يا استاذ عبد الله.. تنورني..

- طيب تمام يابني.. ان شاء الله يوم الخميس بعد صلاة العشا هكون عندك..

- بيتك ومطرحك يا استاذ عبد الله..

-ماشي يابني.. السلام عليكم..

-عليكم السلام و رحمة الله وبركاته..

اغلقت الهاتف ونظرت الى أروي في تساؤل.. مين دا يا أدهم؟

اجبتها: دا استاذ عبد الله.. المحامي بتاع جدي الله يرحمه.. كان قاللي انه عاوز ييجي يوم الخميس الجاي علشان معاه حاجة مهمة لازم يسلمها لي..

سألتني أروي في قلق: حاجة ايه دي؟؟

اجبتها في حيرة: مش عاوز يقوللي لحد دلوقتي.. اديني هشوف يوم الخميس عاوز مني ايه

ردت علي.. ماشي.. ياللا بينا نكمل توضيب.. هانت.. كلها اوضة المكتب بس وخلاص..

نهضنا سويًا بإتجاه غرفة مكتب جدي.. لنكمل تنظيف البيت.. ولأكمل انا ذكرياتي الجميلة..

دخلنا الى مكتب جدي.. بدأنا في ازالة الاتربة عن ارفف المكتبة الضخمة.. وابدت أروي اندهاشها واعجابها بكمية الكتب القيمة الموجوده بالمكتبة.. جاوبتها بكل بساطة:

- جدو كان بيقرا في كل المجالات.. وكان بيهتم اوي بالكتب القديمة وامهات الكتب.. ولما كان بيحكي لي عن الحاجات اللي قراها كنت بفضل تايه في اللي بيقوله بالساعات..

اجابتني بنبره شابها الحزن: يا بختك بيه.. الله يرحمه ويحسن اليه.. بس شكله كان بيحبك اوي واتجهت للمكتب لتمسك ببرواز صغير فيه صورة فوتوغرافية تجمعني انا وجدي.. انتا شكلك كان امور اوي وانتا صغير.. واضح عليكم السعاده مع بعض.. اجبتها وقد تذكرت اليوم الذي التُقطت فيه تلك الصورة..

- اه.. دي كانت خروجة لينا مع بعض في القلعه.. كان بيحب يوديني الاماكن الاثرية اوي.. وياما رحنا مع بعض لمناطق عمري ما كنت اروحها لو مكنتش معاه.. روحنا القلعه.. ومساجد مصر القديمة.. المتحف المصري.. المتحف الحربي.. دا حتى في مرة سافرنا للاسكندرية ووداني قلعه قايتباي.. وعمري ما أنسي رحلة عمرنا.. يوم ما سافرنا للاقصر واسوان.. أجمل ايام حياتي..

اتجهت الى أروي لأجدها تمسح احدي الدموع التي خرجت من عيني دون قصد.. قالت في تأثر:

- الله يرحمه يا أدهم.. دلوقتي هو في مكان أحسن من اللي احنا فيه بكتير..

ثم امسكت بيدي وقبلتها.. احتويتها في صدري.. ومالت برأسها على كتفي.. ظللنا واقفين لبرهة.. ثم قلت لها في هدوء..

- أروي يا حبيبتي.. احنا لسه مخلصناش المكتب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ان ازلنا التراب من فوق ارفف المكتبة وسطح المكتب.. وجدنا بعض الصناديق القديمة.. اتجهت اليها وفتحت أحدها.. فوجدت ما ادهشني..

انتبهت أروي لدهشتي.. فاتجهت الى مسرعةً..

- مالك؟؟ ايه اللي حصل يا أدهم..

دست يدي في الصندوق لأخرج لها وسامًا حربيًا قديمًا، يبدو انه لبلد اوروبي ما.. بذلك الصقر المجنح فاردًا جناحيه في مستوي افقي.. ثم اخرجت بعدها خوذة حربية قديمة ايضًا.. نُقشت عليها رسوم لأسود مجنحة وكائنات اسطورية.. بالاضافة لعديد من المقتنيات التي تمثل نفس القيمة.. رموز تاريخية..

سألتني أروي في غرابة:

- ايه الحاجات دي؟؟ جدك كان بيمثل في فيلم تاريخي ولا ايه؟

نظرت اليها في شرود.. وقلت ببطء: لأ.. دا مش حاجات تقليد... دي اثار بجد!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6

ظللنا لبرهة نحاول استكشاف تلك المقتنيات، و مازلت على رأيي.. انها حقيقية بالفعل.. لا أدري كيف استطاع جدي الحصول على تلك القطع.. لا اتذكر رؤيتها حتى منذ كنت مع جدي تحت سقف هذا البيت.. تكاثرت الاسئلة في عقلي، و أروي تقلب القطع في يدها وتنظر اليها من كل جانب.. علها تجد ما يشير لمكان الصنع او ما يثبت زيفها.. قلت لها في قلق: متحاوليش يا أروي.. حقيقية فعلًا..

- يا أدهم عرفت منين.. اكيد مكتوب عليها صنع في الصين استني اشوف بس..

اجبتها في نفاد صبر وقد تكاثرت الشكوك في نفسي.. صدقيني انا متأكد..

اجابت في سرعه.. عرفت منين؟؟ انتا خبير اثار عشان تقول كده؟

اثارت جملتها بنفسي شيئًا.. تذكرت كيف يمكنني التأكد من حقيقة تلك القطع.. هرعت لهاتفي المحمول وبدأت في طلب الرقم.. انتبهت أروي لذلك بعد ثوان.. هرعت هي الاخرى تجاهي تسألني عما افعل.. اشرت اليها بالصمت مؤقتًا.. بدأت المكالمة قائلًا:

- ألو.. ازيك يا صبحي؟

رد على صديقي صبحي مستفسرًا عن حالى الآن.. اكملت معه الحديث متوترًا:

- تمام يا صاحبي.. الحمد لله على كل شئ.. معلش يا صبحي كنت محتاجك في خدمه مستعجلة كده.. تقدر تبقي تعدي عليا كمان شوية في البيت القديم؟.. اه اللي في شبرا.. ماشي.. فاكر العنوان؟ طيب تمام.. تسلملي يا حبيبي.. مستنيك بأه.. سلام..

اغلقت الهاتف وقد بدا على وجهي الارتياح.. سألتني أروي في فضول:

- مين صبحي دا يا أدهم؟

اجبتها: دا واحد من اعز صحابي القدام من ايام ما كنت هنا في شبرا..

سألتني وقد بدا انها لم تفهم الصلة: طيب ايه علاقة دا بالاثار المزيفة دي؟

اجبت بسرعه: اولًا دي مش مزيفة.. ثانيًا صبحي دا يبقي خريج اثار جامعه القاهرة.. دا اكتر واحد أقدر اعرف منه الحاجات دي حقيقية فعلًا ولا لأ

مطت أروي شفتيها وقالت: ماشي.. لما نشوف.. بس انا مصرة انهم مزيفين..

اجبتها بقلق: ادينا هنعرف كمان شوية يا أروي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غادرت أروي البيت مع وعد بلقاء قريب، وجلست على اريكة الصالة منتظرًا صديقي صبحي.. اخرجت العلبة الموجود بها القطع الاثرية ووضعتها خلف الاريكة.. بعد ساعة، رنّ جرس الباب معلنًا عن وصول صبحي.. اتجهت للباب

وفتحته مستقبلًا صديقي القديم.. احتضنني وواساني على وفاة جدي.. شكرته وارشدته لطريق الصالون.. جلسنا وبدأت حواري معه قائلًا:

- منور يا صبحي.. تشرب ايه الاول؟

اجابني صبحي بتلقائية: والله لسه شارب قبل ما انزل يا أدهم.. ريح نفسك بس

اصررت على موقفي وانتهي ذلك بإعدادي الشاي لكلينا.. جلسنا نحتسي الشاي الدافئ بكل استمتاع.. سألني صبحي في اهتمام عن سبب طلبي اياه.. فاعتدلت في مجلسي وبدأت في الشرح..

دلوقتي بعد ما جدي اتوفي.. انا قررت اجي اسكن هنا.. من شوية وانا بوضب اوضة المكتب.. لقيت علبة قديمة فيها حاجات كده..

اثار الموضوع اهتمامه وسألني بفضول: حاجات ايه؟

اجبته بكل ثبات: قطع اثرية

قطب صبحي جبينه وقد بدا الاهتمام فعلًا على وجهه: امممم.. اثار.. طب ما هي ممكن تكون متقلده؟

اجبته نافيًا: لأ انا متأكد.. شكلها فعلًا حقيقي.. ثواني اروح اجيبهالك.. ذهبت للصالة لأحضر العلبة.. عدت اليه لأجده قد انتهي من شرب الشاي وبدأ في اشعال سيجارة..

- انتا يابني لسه فيك العاده الهباب دي؟

اجاب صبحي ضاحكًا: معلش يا عم أدهم.. انتا عارف لازم سيجارة علشان أركز في الكلام التقيل دا

قمت لفتح النافذة جلبًا للهواء.. كم أكره السجائر.. قلت لـ صبحي مازحًا:

- كفاية واحده بس.. مش قاعدين في قهوة احنا..

بدأت في فتح العلبة ومال صبحي برأسه تجاهها.. في بطء اخرجت اول قطعه وهي الوسام الحربي القديم.. ناولته لـ صبحي بكل حرص.. نظر اليه في تركيز.. واخذ يقلبه في يديه لدقائق.. اجابني:

-فعلًا شكله حقيقي.. اعتقد انه نيشان من ايام الحرب العالمية.. بس جدك جابه ازاي دا؟

اجبته: والله ماعرف.. مانا علشان كده بسألك.. هل الحاجات دي بيحصل فيها متاجرة؟

رد قائلًا: اغلب الحاجات اللي بيحصل فيها متاجرة بتكون اثار فرعونية او اسلامية.. اغلبها حاجات متعلقة بحضارات مصر.. لكن الحته دي ممكن تكون جاية من برة.. طب مش ممكن يكون جدك لقاها في صحاري العلمين وكده؟؟ المناطق دي فيها حاجات من مخلفات الحرب العالمية كتير..

لم يخطر في بالى ذلك فعلًا.. ربما وجدها جدي في أحد اسفاره ورحلاته.. سواء في مصر او خارجها.. اعلم جيدًا عشق جدي الراحل للتاريخ، ولا بد ان يحتفظ بتلك الذكري إذا وجدها.. لكن ماذا اقول عن باقي القطع؟؟ انها اشبه بمجموعه تحف لجامع شغوف للآثار.. حاولت ارجاء التفكير في تلك الخواطر لما بعد رحيل صبحي.. اكملت اخراج القطع، اعطيت لـ صبحي القطعه الثانية.. الخوذة الحربية.. تناولها في انبهار وبدأ يفعل بها ما فعل بالوسام.. لكن هذه المرة طال الوقت حتى وصل لخمس دقائق.. بعدها أردف في قلق مختلط بالدهشة:

- دي بأه انا متأكد انها اصلية.. الخوذة روعه.. اعتقد من عصر الدولة البطلمية في مصر.. بس غريبة، النقوش عليها واضحة وكأنها معمولة من كام سنة مش من كام قرن..

اثارت تلك النقطة اهتمامي كثيرًا.. سألته في عدم فهم: ازاي؟؟ مش انتا بتقول انها من ايام الدولة البطلمية؟

اجابني مؤكدًا: اكيد.. لكن الخوذة سليمة جدًا.. اغلب اثار الفترة دي تآكل منها جزء.. لكن دي كويسة اوي.. دا دليل ممكن يخليها مزورة.. بس بصراحة لو مزورة.. يبقي اللي زورها دا فنان.. التفاصيل متقنه جدًا جدًا..

ثم أكمل وقد بدا عليه الحيرة فأخذ يلمس طرف ذقنه كعادته عند شعوره بالقلق.. بصراحة يا أدهم.. خبرتي متقدرش تحكم على الحتت دي انها حقيقية ولا مضروبة.. انا عندي فكرة.. اجبته: قول يا عم العبقري..

أردف قائلًا: انا ممكن اوريها للدكتور رئيس القسم عندنا.. الراجل دا موسوعه تاريخية اثرية.. و دا اكتر واحد يقدر يساعدنا في الموضوع دا.. بس هاخد الحاجات دي ازاي كده معايا؟

اجبته في سرعه: وانتا ليه تاخدها؟؟ صورها كويس وأبقي اديله الصور يشوفها..

اجاب غير مقتنعًا: لأ صعب.. لازم الاصل.. الصور مش هتوضح الحاجات اوي..

جاءه مني الرد سريعًا: مقدرش اطلع الحاجات دي برة البيت يا صبحي.. صورها كويس واديله الصور.. مش مشكلة انا مش مستعجل على الحاجات دي ومش طالب رأى علمي بحت.. انا عاوز اعرف بس هل الحاجات دي حقيقية فعلًا ولا مزورة؟ مجرد تأكيد لحاجة في دماغي بس..

اجابني وقد رضخ بالامر: خلاص ماشي.. اللي تشوفه يا أدهم.. وبدأ في تصوير القطع بكاميرا هاتفه ذو الدقة الفائقة.. بعد ان انتهي من تصوير جميع تفاصيل وجوانب القطعتين.. سألني:

طب فيه حاجات تانية ولا خلاص كده؟

اجبته: لسه فيه كمان ييجي عشر حتت على الاقل.. بس كفاية دول دلوقتي.

اشار برأسه موافقًا، ثم استأذن للرحيل لانشغاله بموعد اخر بعد نصف ساعة، وطمأني بأنه سيخبرني بالنتائج خلال يومين على الاكثر.. شكرته كثيرًا ورافقته حتى خرج من البيت.. لأذهب انا بعدها للنوم.. فغدًا يوم حافل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صحوت مبكرًا في اليوم الثاني.. بعد كوب النسكافيه الدافئ، ذهبت الى مكتبة جدي لأطالع بعض الكتب.. وجدت ان كثيرًا من الكتب قد تم اضافتها منذ ان رحلت عن هنا.. بعض منها من امهات الكتب التي يعشقها جدي.. وبعضها كتب حديثة نسبيًا.. اجزاء من موسوعات عن علم الفيزياء.. كتب عن نظريات فلكية.. واخرى عن تاريخ الدول والحضارات والشعوب.. كتب في اللغات الاجنبية والقديمة.. رحمك الله يا جدي.. كم كنت عظيمًا.. لم ار في حياتي شخصًا مثلك في اخلاقك وفي رُقيك في التعامل مع من حولك.. ثقافتك الواسعه كانت خير ارث ورثته منك.. ليتني اكون جزءًا ولو بسيطًا مما كنت فيه.. رحمك الله يا جدي..

قضيت في مكتب جدي اغلب ساعات النهار.. لا يقطع مطالعتي للكتب الا القيام لتناول شطيرة او الذهاب لقضاء الحاجة.. جاءني هاتف من أروي تستعلم عما حدث بالامس.. اخبرتها ملخصًا عما حدث.. ابدت موافقتها على قراري بعدم خروج القطع من البيت.. وتمنت لي التوفيق.. اشكر الله دائمًا على وجود أروي بجانبي.. انسانه يصعب ان أجد مثلها في زماننا هذا.. مثقفة ومحترمة وعلى خُلق ودين حقيقي.. بالفعل لا أدري كيف كنت سأعبر تلك الفترة بدون وجودها بجانبي..

انتهي المؤذن من صلاة العشاء.. اديت الصلاة و الحمد لله ثم بدأت في تجهيز الصالون استعدادًا لحضور المحامي الاستاذ عبد الله.. بالفعل بعد حوالى ربع ساعة.. سمعت طرقاته على باب المنزل.. استقبلته خير استقبال وادخلته لغرفة الصالون.. شد انتباهي احضاره لصندوقًا متوسط الحجم..

جلس الاستاذ عبد الله على أحد المقاعد الوثيرة للصالون.. بعد السلام والمجاملات المعتادة.. بدأ الاستاذ عبد الله كلامه بجدية: دلوقتي يا أدهم.. زي مانتا عارف.. غير اني صديق لجدك الله يرحمه.. انا كنت المحامي الشخصي بتاعه.. جدك كان راجل في حاله.. عمره ما رفع قضية على حد.. وعمره ما كان بتاع مشاكل.. علشان كده اللي بيننا عمره ما كان علاقة شغل.. اعتبره علاقة ثقة بين صديقين اوفياء..

اجبته مؤكدًا:طبعًا يا استاذ عبد الله.. انا افتكر جدي الله يرحمه دايمًا كان يشكر في حضرتك.. ودايمًا يجيب سيرتك بالخير.. ثم اكملت مستفسرًا: بس برضو.. حضرتك مقولتليش ايه الموضوع؟

اعتدل في مجلسه وارتشف من كوب القهوة الذي طلبه.. ثم أكمل: جدك من حوالى عشر سنين كده.. بعد ما عمك اخدك من احضانه.. كان مقهور وحزين جدًا.. اول مرة اشوفه في حياتي كده.. لكن دايمًا كالعاده كان بيدفن نفسه وسط شغله وتجاربه علشان ينسي حزنه.. من شبابه وهو كده.. بعد ما خرج شوية من الفترة دي.. لقيته جاي يزورني في المكتب ومعاه الصندوق دا..

ثم تناول الصندوق الذي احضره معه.. وناولني اياه.. وأكمل قائلًا:

سألته ساعتها عن الصندوق دا.. قاللي ان الصندوق دا شايل فيه حاجة مهمة جدًا.. تعتبر اهم حاجة في حياته.. وطلب مني اشيلها معايا.. وطلب مني برضو انه هيعدي عليا كل فترة يحط حاجة في الصندوق دا او ياخدها منه.. طبعًا ساعتها مكنتش فاهم عاوز ايه.. بس انتا عارف مقدرش ارفض له طلب.. حافظت على الصندوق دا طول السنين دي.. وكل فترة كان بيمر عليا.. مرة كل شهر.. وساعات كان يمر بالشهرين والتلاته ميعديش.. مفيش مواعيد محدده ليه.. بس كان لما ييجي.. ياخد الصندوق ويفتحه في اوضة مقفوله عليه.. انا احترمت خصوصيته وعمري ما سألته ايه اللي في الصندوق.. حتى هو كان عامل قفل سري عليه بارقام سرية.. مقالش هي ايه بس انا رفضت اسأله.. دي حاجاته وهو حر فيها اكيد..

سألته وقد بلغت مني الاثارة مبلغها:

- طيب دلوقتي انا اعمل ايه مع الصندوق دا؟

اجابني: انا فاكر في الشهور اللي فاتت دي.. جدك كان تعب اوي.. ساعتها عدي عليا زي عادته.. بس مفتحش الصندوق.. بلغني بس ان الصندوق دا يتسلم ليك انتا شخصيا باليد في حاله انه توفي او حصلت له حاجة خطيرة اوي.. كأنه كان حاسس ان اجله قرب ثم بدأ الاستاذ عبد الله في بكاء هادىء صامت..

تدافعت الافكار في رأسي.. صندوق مغلق.. سر.. رقم سري.. كل يوم اكتشف سرًا بخصوصك يا جدي.. يا تري ما هو السر تلك المرة؟ خفت ان يشغلني التفكير عن السؤال الهام.. فسألت استاذ عبد الله:

- طب دلوقتي انا أقدر افتح الصندوق ازاي يا استاذ عبد الله؟؟ انا معرفش الرقم..

اجابني حائرًا: والله يابني انا معرفش الرقم.. كل اللي قاله لي وقتها.. خلي أدهم يدور.. هو هيقدر يخترق أفاق السر دا بنفسه..

مازالت الحيرة تتملكني.. لم افهم ما قال.. حاولت التفكير في معني تلك الجمله ولكن ذهني كان كمرجل تُقلب فيه وصفات السحرة.. كانت الجمله الاخيرة ايذانًا بانتهاء المقابلة.. استأذن الاستاذ عبد الله وقام.. رافقته لتوصيله لباب المنزل.. وسلّم على بجملة ما لم اميزها لشرودي وتفكيري في كلمات جدي..

عدت لغرفة مكتب جدي.. ارتكنت الى ارفف المكتبة.. استعدت ما قاله جدي.. خلي أدهم يدور.. هو هيقدر يخترق أفاق السر دا بنفسه.. دائمًا ما كنت تعشق اللعب معي يا جدي.. لكن تلك المرة أعجز بالفعل عن فهم ما تقول.. اخترق السر؟

هل تقصد اني اخترق الصندوق لأعرف السر؟ لا.. بالتأكيد لا.. لم يلجأ جدي للقوة ابدًا.. دائمًا اقتنع باستخدام العقل.. اذن.. فلأعمل عقلي لأصل للسر.. لأخترق افاقه.. لأخـ.. نعم!!!

اخترق آفاقه.... انه الكتاب!!

التففت بسرعه الى المكتبة.. نظرت بسرعه الى الرف الاسفل..

سحبت الكتاب منه في رفق.. نعم انه الكتاب.. اول كتاب امسكته في تلك المكتبة.. نزهة المشتاق في اختراق الافاق للإدريسي.. ابتسمت في فرح.. لقد فهمتك يا جدي.. علمت ماذا تقصد بالاختراق.. فتحت الكتاب واخذت في تقليب صفحاته.. نفس الكتاب.. لم يتغير به شيئًا.. لا توجد اي كتابات او اي علامات توضح ما المطلوب فعله بالكتاب.. لم افهم.. انا متأكد من اني امسك بمفتاح حل اللغز.. اذن ما المشكلة؟

قلدت ابطال الروايات.. امسكت بالكتاب ونظرت في غلافه من الداخل.. ربما اجد خطابًا سريًا.. اذهلني وجود ما يشبه اثار صمغًا على طرف الغلاف من الداخل.. هرعت للمكتب وامسكت بفتاحة الخطابات الموضوعه عليه.. ضغطت بها بحرص.. لتنسل ورقة مطوية بعناية من الغلاف.. اخذتني الدهشة بالفعل تلك المرة.. خطابًا مخبأ في غلاف الكتاب.. ان اسرارك تزداد وعورة يا جدي!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7

انزلقت الورقة المطوية من غلاف الكتاب لتزداد معها ضربات قلبي من فرط الإثارة.. خطاب مخبأ في غلاف كتاب.. اي سر خطير هذا الذي خبأه جدي؟ ولماذا كل تلك الاعدادات؟ امسكت الورقة وفضضتها.. وبدأت اقرأها وعيناي غير مصدقتين لما تقرأ..

بسم الله الرحمن الرحيم..

عزيزي أدهم..

مادمت قد وصلت الى هذا الخطاب، فهذا دليل على فوزي بالرهان.. لقد راهنت نفسي على ذكائك وقدرتك على حل اللغز.. وبما ان الخطاب بين يديك الآن.. فهذا معناه اني قد غادرت هذا العالم وذهبت للقاء وجه ربي الكريم.. اعذرني يا ادهم.. وددت لو اراك ولو لمرة اخيرة قبل ان اموت.. ولكن عائلة والدك رحمه الله كانت السبب في فراقنا.. لن استطيع ان انسي اليوم الذي جاء فيه عمك كمال لأخذك مني وضمك لكنفه وكنف عائلته.. بعد هذا اليوم تغيرت حياتي فعلًا.. حدث ما لم اتخيله.. ورأيت ما لم يراه أحد من قبل.. لن اطيل عليك في هذا الخطاب الصغير.. ستعلم كل شئ بعد قليل..

من المفترض ان عبد الله صديقي العزيز قد احضر اليك الصندوق.. ستجد قفلًا بالارقام يحمي هذا الصندوق.. استعمل عقلك وافتح هذا القفل.. مفتاح القفل هو تاريخ يوم رحيلك عني.. عسي ان تتذكر ذلك اليوم مثلما تذكرته انا..

جدك جمال

طويت الورقة، وقد انتابني زخم من المشاعر لم استطع تحديده.. حزن وتأثر وانفعال وتوتر... امسك بين اصابعي بخطاب شخصي من جدي العزيز.. ينبهني لسر جديد.. وتذكرت ذلك اليوم المشئوم.. يوم ان اخذني عمي من احضان جدي.. بالفعل كانت نقطة تحول في حياتنا..

عدت الى الصالون لأحمل الصندوق الى غرفة المكتب، وضعته امامي بعناية.. تذكرت تاريخ ذلك اليوم، وحركت عجلة الارقام في القفل.. بعد اخر رقم اصدر القفل صوت تكة مميزة تعبر عن فتح القفل.. خلعت القفل ووضعته بجانب الصندوق، وفتحت الصندوق بكل ترقب..

رزمة من الاوراق المجموعه يدويًا في شكل مجلد.. هذا ما وجدته.. اخرجتها بعناية من الصندوق وقد بدا عليها القِدم.. فاصفرت بعض أطراف صفحاتها الاولي وتثنت.. بينما احتفظ الباقي بتماسكه.. ما شد انتباهي هو ما على غلاف المجلد.. رسم يدوي لدائرة.. ويخرج منها خطان من نقطة مركزها في زاوية شبه منفرجة.. لم افهم معني ذلك الرمز.. لذلك بدأت في قراءة تلك الاوراق.. لعلها تحمل اجابة لتساؤلاتي الحائرة..

امسكت بالغلاف وفتحت اول صفحة.. وبدأت اقرأ ما كتبه جدي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بسم الله الرحمن الرحيم..

عزيزي أدهم..

إن وجود تلك الاوراق بين يديك الآن لهو أكبر دليل على حسن ثقتي بك، واستكمالًا لما كتبته لك في خطابي الصغير.. ما بين يديك الان هو سري العظيم.. سري الذي كتمته بداخلي طيلة حياتي الفانية.. لذلك اريد منك ان تشحذ حواسك وتنتبه لما ستقرأه في الصفحات القادمة.. فأنت من تلك اللحظة، لن تصير حياتك كسابقها، وستمتلك ما يطمع فيه اي انسان.. فاحترس..

لن أستطيع ان أروي لك ذلك السر بدون ان اخبرك بمقدماته.. ومقدمة السر ترجع الى سنين بعيده.. كنت فيها في مثل سنك وقتها.. شاب لأسره ميسورة الحال.. والدي تاجر من الطبقة المتوسطة - تلك الطبقة التي هُمشت بالكامل بعد ذلك في عصر السادات ثم مبارك - واستطاع والدي تربيتي انا واخوتي الاربعه أفضل تربية.. اهتم بتنشئتنا عقليًا وبدنيًا.. فلم يبخل على بكتاب اقرأه، حيث كنت شديد النهم لقراءة كل ما يقع امام عيني من كتب او مدونات..

لطالما حلم والدي بأن يراني عالمًا فيزيائيًا كبيرًا.. فقد حمل في داخله اجلالًا واحترامًا كبيرًا لمكانة العالِم.. وخاصةً ان وقتها بزغ نجم العالم المصري الراحل على مصطفي مشرفة.. فكان خير مثال للعالم الفيزيائي المصري.. لكني للاسف دائمًا كنت مخيبًا لأمال ابي في تلك النقطة.. فأنا احمل داخلي حبًا عارمًا للتاريخ.. اعشق تصفح التاريخ والاستزاده منه دائمًا.. تاريخ الانسانية منذ ولادتها وهو في تكرار مستمر.. امم تتكون وتتجمع لتتحد و تنهض ثم تسيطر ثم تشيخ لتموت وتفسح المجال لأمة اخرى بعدها.. وهكذا دواليك.. تمر الايام بنا ولا ندري اننا تروس صغيرة في الة كبيرة هي مجري الزمن.. لذلك عشقت التاريخ.. كان هو مرشدي ومعلمي.. علمت منه ما روي ظمأي للمعرفة.. ولكن ذلك لم يوقفني.. بل زادني عطشًا.. للاستزادة..

بعد ان اتممت دراستي.. صرت على استعداد للالتحاق بالجامعه.. وكانت تلك لحظة الصدام مع والدي، فقد تقابل عشقي للتاريخ مع اصراره على دراستي للفيزياء.. وقتها رضخت لرغبة والدي احترامًا له.. ولكني يومها اقسمت لنفسي ان دراستي للفيزياء لن توقفني عن اهتمامي بالتاريخ، فصارت الفيزياء في كفة والتاريخ في الكفة الاخرى.. وبحمد الله استطعت ان اوازن بين الكفتين بدون ان اقلل من اهتمامي بأحدهما على حساب الاخرى..

تفوقت في دراستي وكنت من نخبة دفعتي طوال سنوات الدراسة.. حتى تخرجت بعدها بأحد مراكز الاوائل على الدفعه.. وقتها كنا في فترة حكم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر.. وقت أن كانت العلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتي قد بلغت اعلى مستوياتها، فاعتبر الاتحاد السوفيتي انذاك رئيسنا صديقهم الاكبر من

بين جميع اصدقائهم من زعماء العالم والوطن العربي.. واتيح لنا وقتها ان يتم ارسالنا في بعثات تعليمية على نفقة الوزارة الى الاتحاد السوفيتي.. كان السوفيت وقتها - وما زالوا - من كبري الدول المهتمه بالعلوم وخاصة الفيزياء.. حينما علم والدي بذلك الخبر، فرح فرحًا شديدًا.. ومن فرط فرحته، توقف قلبه عن الخفقان.. ليرحل عن دنيانا ويغادرنا في يوم حزين من ايام ذلك العام بمنتصف الخمسينيات..

سافرت الى الاتحاد السوفيتي حاملًا في قلبي حزنًا شديدًا على وفاة والدي.. مضطرًا للسفر رغمًا عني.. وتاركًا امي وحدها مع اخوتي الاربع.. كان عزائي الوحيد وجود اخي بجانبها وبجانب اخواتي الفتيات.. الامل معقود عليهم ان يعتنوا بأمي حتى أستطيع الحضور الى مصر في أقرب إجازة..

وصلت الى الاتحاد السوفيتي، ومنذ ان وطأت قدمي الارض هناك، حتى شعرت ببرودة المكان تزلزل اعماقي، وتبعث في اوصالى اليأس والكآبة.. ليمتزج ذلك الشعور بحزني الداخلي، فتكون مزيجًا بائسًا جعلني أبدو كإنسان محطم النفس..

استطعت بعد فترة تكوين بعض الصداقات مع زملاء مصريين في البعثة، وبعض اساتذتنا السوفيت في جامعه موسكو الحكومية.. ولكن كان اشدهم صداقة هو الدكتور جريجوري ديميتريف مساعد عميد كلية الفيزياء.. رجل طموح وعالم فيزيائي من كبار علماء الجامعه.. استطعت بتفوقي وشغفي الحقيقي بالفيزياء ان استرعي انتباهه، فبدأ في تجاذب أطراف الحديث معي في شهوري الاولي من وجودي بالجامعه، ومع الوقت أصبحنا اصدقاء اعزاء.. وجمعنا ايضًا حبنا المشترك للتاريخ والذي كان صدفة لم يصدقها أحدنا..

في عامي الثاني بالبعثة صار بيننا علاقة صداقة وثيقة، وكان خير تتويج لصداقتنا هو زواجي من ابنته الصغري كاترينا.. كانت كاترينا في العشرين من عمرها، منذ ان رأيتها للمرة الاولي اثناء زيارتي لوالدها في منزلهم، استطاعت ان تجذب عقلي وقلبي معًا.. بعيناها الزرقاوتان كماء البحر، وخصلات شعرها الذهبي المتهدلة على جبينها في كسل، وبشرتها البيضاء الوهاجة.. مع مرور الوقت، لاحظ والدها بذكائه الشديد اهتمامي بها في كل مرة يأتي الكلام عنها او تمر امامنا حامله لنا اكواب الشاي الساخن، وبعد شهور بارك والدها زواجنا.. وهي إن ظلت محتفظة بديانتها المسيحية الارثوذكسية، ولكنها ايضًا كانت تحمل في داخلها توقيرًا كبيرًا للاسلام.. ولقد احترمت فيها ذلك كثيرًا.. ارسلت صور زفافي لأمي في مصر، وبلغني فرحتها العارمة متمنيةً لي السعاده والهناء، بالرغم من بعض الشكاوي البسيطة كعاده اي ام مصرية من تذمرها لزواجي من اجنبية، ولكن كل ذلك التذمر البسيط ذهب مع الريح فور ان احضرتها معي في احدي الاجازات الى مصر، وقتها كان لقاء الحضارتين المصرية والروسية خير لقاء.. لقاء غريب ومضحك نوعًا ما.. لكنه مر بسلام و الحمد لله..

بعد مكوثي في ارض الاتحاد السوفيتي لحوالى عامين، ادرس فيها الفيزياء واتحضر لنيل شهادة البكالوريوس، صرت متقنًا للغه الروسية، وكنت الافضل بين

اقراني في التحدث بها بكل طلاقة بالرغم من صعوبتها، مما شجعني على فكرة تعلم اللغات، ونويت ان اتعلم المزيد من اللغات فور عودتي لمصر..

في عامي الثالث انجبت كاترينا ابنتنا الوحيده.. أمك يا أدهم رحمها الله.. وقتها رغبت كاترينا في ان تسمي ابنتها اسمًا عربيًا خالصًا.. سألتني ما أفضل الاسماء العربية عندنا.. لم يدر ببالى اسمًا معينًا.. ولكنني كنت أكن حبًا خالصًا لأهل بيت النبي - صلي الله عليه وسلم - وخاصة السيدة زينب التي عشقت الصلاة بمسجدها بمدينة القاهرة.. فاقترحت اسم زينب.. نطقت كاترينا الاسم فاعجبها رنينه واقتنعت به سريعًا.. وكان ذلك اليوم من أجمل ايام حياتي بالفعل..

زادت مكانتي علوًا في قلب استاذي السيد ديمتريف بعد مجئ زينب.. فلقد كانت فاتحة خير على الاسرة جميعها.. فتمت ترقية السيد ديمتريف لمنصب عميد كليه علوم الفيزياء بجامعه موسكو الحكومية.. واستطاعت كاترينا ان تحصل على وظيفة مترجمة بإحدي الصحف السوفيتية الصادرة بالعاصمة موسكو.. كان عام مولد زينب نقطة تحول في حياتي بالاتحاد السوفيتي.. بل لا اكذبك القول إذا قلت نقطة تحول في حياتي بأكملها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اوقفت قرائتي قليلًا لخطاب جدي بالرغم من انتظاري لبداية حديثه عن السر.. ولكن لم املّ مما كتبه.. فأنا لأول مرة يخبرني جدي عن نفسه بأشياء لم اعرفها من قبل.. عرفت ممن ورثت والدتي تلك البشرة البيضاء.. من امها الروسية.. اندهشت قليلًا عند علمي بأن هناك شخصًا روسيًا من اجدادي.. ربما إذا بحثت قليلًا في نسب عائلتنا منذ القدم لوجدت ان جد جد جد جدي كان اغريقيًا او بابليًا.. احيانًا كثيرة يلهو التاريخ بنا بطريقة مضحكة..

ذهبت للمطبخ لإعداد كوبًا من النيسكافية الدافئ.. فالليلة يبدو انها ستطول.. بالرغم من ان غدًا هو الجمعه ويجب على الاستيقاظ مبكرًا للذهاب لصلاة الجمعه.. ولكن اغراء قراءة مذكرات جدي كان قويًا للغاية..

عدت الى الصالون ممسكًا بكوب النيسكافية، اعددت جلستي ووضعت الورق امامي لأكمل قراءة المذكرات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان عام مولد زينب نقطة تحول في حياتي بالاتحاد السوفيتي.. بل لا اكذبك القول إذا قلت نقطة تحول في حياتي بأكملها.. ففي ذلك العام، كنت ادرس في معمل الفيزياء كالعاده، حينما اتاني السيد ديمتريف وطلب مني موافاته الى مكتبه بعد انتهائي من تجاربي.. اجبته بالموافقة وحاولت انهاء ما بيدي بسرعه حتى لا أتأخر على موعدي معه.. انتهيت من تجربتي وسجلت نتاجئها ثم ذهبت الى السيد ديمتريف في مكتبه الخاص بالجامعه.. طرقت الباب لأسمع صوته من الداخل يأمرني بالدخول..

دخلت وقد بدأت في القلق عندما رأيت وجه السيد ديمتريف المرتسم عليه الاهتمام وكثرة التفكير بوضوح كالشمس.. طلب مني الجلوس، فجلست و مازلت قلقًا.. بدأ الكلام معي بالروسية التي صرت اتحدثها كأهلها..

- انت تعلم يا جمال إنني صرت اعتبرك بمثابة الابن.. خاصةً ان أبني قد رحل عنّي وهو في عمر المراهقة، لذلك منذ ان تعرفت عليك واعجبني فيك جدك واجتهادك، صرت اعاملك كابني بالفعل.. وازداد حبي لك بعد ان صرت زوجًا لإبنتي.. وأني اؤتمنك عليها منذ سنتين.. لذلك اتخذت قراري بأن اؤتمنك على سري ايضًا..

اجبته بإهتمام: يشرفني يا سيدي ان تثق بي، وانما احترامي لك ماهو إلا اقل شئ يمكن ان أقدمه لك بعد رعايتك لي واشرافك الدائم علي، وائتماني على ابنتك الغالية ام ابنتي.. ولكني لم افهم بعد ماهو ذلك السر الذي تود ان تخبرني به؟

اخفض السيد ديمتريف من صوته قليلًا وقال: يجب ان لا يعلم احد بذلك السر يا جمال.. فأنت تعلم ان الجواسيس منتشرون في كل مكان في ارض الاتحاد السوفيتي.. ليس جواسيس الامريكان فقط.. بل الجواسيس السوفيت أنفسهم.. المخابرات السوفيتية لديها عيونها في كل شبر من ارض الاتحاد.. لذلك اود ان تحترس جيدًا إذا علمت ذلك السر.. ذلك السر سوف يغير من حياتك الى الابد.. وانت الوحيد الذي اراه جديرًا بأن يعلمه معي.. وان تحمل الراية من بعدي إذا توفيت.. فهل ستثبت لي جدارتك بالفعل؟

ازدردت لعابي واجبته بكل توتر: اعدك اني سأكون على قدر المسئولية يا سيدي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8

مازلت مستغرقًا في قراءة مذكرات جدي - رحمه الله - وقد انتابني مزيد من التشوق لمعرفة ماهية السر الذي نُسجت حوله كل تلك الالغاز والرسائل المخبأه..

اقترب مني السيد ديمتريف وقتها وسألني بصوت خفيض:

- هل رآك أحد اثناء مجيئك الى مكتبي؟

اندهشت من سؤاله، فالجميع يعلم أنني دائم المرور على مكتبه وكثيرًا ما يراني اغلب الطلبه والدارسين مع السيد ديمتريف وبالرغم من دهشتي، اجبته بدون تردد:

- لا، لقد كان اغلب الطلاب في غرف الدراسة..

اجابني السيد ديمتريف وقد غلب الارتياح على صوته:

- حسنًا.. اتبعني من فضلك يا جمال

تبعت السيد ديمتريف وقد انتابني القلق من طريقة كلامه وافعاله الغريبة.. لم أعتده بتلك الغرابة، انه كمن يخبئ سرًا خطيرًا.. او كمن ارتكب فعلة شنعاء يخاف من افتضاح امره بسببها..

وجدت السيد ديمتريف يقتادني لغرفة المعامل العامة.. والتي يجري بها الطلبه والاساتذة تجاربنا الفيزيائية، ولكنه لم يتوقف في تلك الغرفة، بل أكمل طريقه نزولًا للقبو المجاور للمعمل، والذي تم استعماله قديمًا كمعمل ايضًا، ثم تحول

مع التطويرات التي تمت بالقسم الى مجرد قبو لتخزين الادوات وبقايا التجارب..

دخلنا سوية الى القبو، اغلق الباب خلفي بالمفتاح.. توجست خيفة لما فعله.. كانت الاضاءة خافتة مما جعلني اميز الصناديق الموضوعه امامي بصعوبة.. اضاء السيد ديمتريف مصباح القبو، لم تكن اضاءته بالقوة الكافية لإنارة القبو بالكامل، ولكنها كانت كافية على الاقل لكي تريني ما امامي من صناديق بوضوح..

اتجه الى السيد ديمتريف وسألني بكل حزم: ماذا تعلم عن الفيزياء يا جمال؟

صُدمت من سؤاله.. وبدأت ارتاب في الصحة العقلية لذلك الرجل، فهاهو يأتي بي من وسط تجاربي وعملي المتواصل، ويسير بي خلال الغرف والمعامل ليصل بنا الى قبو قديم مهجور ليسألني عن مدي درايتي بتخصصي الذي ادرس فيه منذ ما يربو عن خمس سنوات..

اجبته في تردد: لا اعلم ما المقصود بسؤالك.. لكنّي اعلم اني لست مكتفيًا بما تعلمته كل تلك السنوات

لمعت عيناه وامسك بكتفي قائلًا: تأكدت من أنك ستقول ذلك.. أنك بالفعل تستحق معرفة السر.. في داخلك بذرة العالم الحقيقي.. وطموحك وثقافتك العلمية كانا خير دافع لي على اشراكك معي في سري..

بلغ مني القلق مبلغه.. لم أستطع كتمان تساؤلاتي، سألته ببعض الحدة: - ما هذا السر الذي تتكلم عنه منذ ان اتيت بي؟

صمت قليلًا، ثم أردف: اعلم أنك متشوق لمعرفة السر.. وسوف اكشف لك عنه حالًا.. ستري تجربتي العلمية الاعظم في تاريخ الفيزياء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ازاح السيد ديمتريف الغطاء عن صندوق خشبي يستعمل عادةً لتخزين المعدات الزجاجية والمعدنية المستخدمة في التجارب المعملية.. ثم فتح الصندوق واخرج منه علبة كبيرة الحجم قليلا ولكنها مازالت في متناول اليدين.. وقبل ان يفتحها بدأ في التحدث..

- مر علم الفيزياء بعديد من التطورات على مدار تاريخه الممتد خلال القرون السابقة، بدأ كمعتقدات جاهلة ثم تحورت لأفكار محتفظه ببعض من تلك المعتقدات، ثم تطورت الى افكار علميه خالصة صارت قواعد صارمة ومنهاجًا نسير عليه نحن العلماء لإكتشاف المزيد والمزيد من نبع ذلك العلم الفياض..

وفي عشرينيات قرننا هذا، تقبل المجتمع الفيزيائي بعد سنوات، نظريات العالم اليهودي الاصل ألبرت اينشتاين، كالنظرية النسبية الخاصة والنظرية النسبية العامة.. تلك النظريات كانت اللبنة الاولي للفيزياء الحديثة التي ندرسها الآن..

اينشتاين في نظريته النسبية العامة وضع الزمن بعدًا رابعًا للابعاد الديناميكية الثلاثة، وسمي الفضاء ذو الابعاد الاربعه بالـ زمكان، حيث يجتمع المكان والزمان معًا..

تلك النظريات والمصطلحات العلمية الجديدة اثارت اهتمامي شخصيًا وقتها كأي طالب علم شغوف بالفيزياء.. وقد كنت في مثل سنك وقتها.. ولكن اهتمامي فاق اهتمام زملائي.. لقد انجذبت للفكرة بالفعل وظللت لسنوات ادرسها وأجري التجارب المشتقة منها، وقتها جاءني الالهام.. لماذا لا أصل بتلك النظرية لما هو ابعد؟ لماذا لا احقق بها ما كان مستحيلًا على مر العصور؟

اثناء تجاربي وانشغالى التام بتلك النظريات، ظهر العالم الفلكي الالماني كارل سفارتسشيلد ليخرج برائعته العلمية والتي كانت نقطة التحول في تجربتي.. افترض سفارتسشيلدأنه إذا ضغطت كتلة ما في حدود نصف قطر صغير بما فيه الكفاية، فإن انحراف الزمكان سيكون كبيرًا بحيث لن تتمكن أي إشارة من أي نوع من الإفلات، بما في ذلك الضوء نفسه، مكونا حيّزا لا يمكن رؤيته، سمي فيما بعد بالثقب الأسود.. ويحدث ذلك عند انهيار نجم تتجاوز كتلته ضعف كتلة الشمس، حيث ينضغط ويتداخل بفعل قوته الجاذبة حتى تكون كل مادة النجم قد انضغطت في نقطة ذات كثافة لامتناهية، تسمي نقطة التفرد الزمكاني.. وأي شعاع ضوء (أو أي جسم) يرسل داخل حدود الثقب الأسود، ويسمي أفق الحدث، يسحب دون هوادة الى مركز الثقب الأسود..

مساهمة سفارتسشيلد تكمن في أنه قدم حلولا للمعادلات التي تصف انهيار النجم الى ثقب أسود على أساس نظرية النسبية.. واتضح لاحقًا أن سفارتسشيلد لم يصل الى حل واحد للثقب الأسود، وإنما الى حلين، وهو شيء يشابه الحل الموجب والحل السالب للجذر التربيعي. فالمعادلات التي تصف الانهيار النهائي لجسم يقتحم الثقب الأسود تصف أيضا، كحل بديل، ما يحدث لجسم يخرج من الثقب الأسود (يطلق عليه في هذه الحال أحيانا الثقب الأبيض).. وبذلك يبدو أننا إذا ما تابعنا انحناء الزمكان داخل الثقب الأسود يبدو لنا وكأنه ينفتح مرة اخرى على زمكان آخر، فكأنما الثقب الأسود يربط زمكان كوننا بزمكان مختلف تمام الاختلاف، ربما زمكان لكون آخر او ربما نفس كوننا، طبقًا لتردد ذلك الثقب الأسود..

اوقفته للحظة لالتقط انفاسي بعد ذلك الكم الهائل من المعلومات، لقد كان اغلبها معلوم بالنسبة لي، ولكن لم يربط أحد من قبل بين تلك النظريات بتلك الطريقة كما فعل السيد ديمتريف.. لقد القي بي في غياهب الفيزياء بدون ان يرمي بطوق النجاه.. سألته في توتر:

- حسنًا، لقد فهمت ما رويته لي عن تلك النظريات.. وانا اعلمها بالفعل وان لم أفكر فيها من قبل بتلك الطريقة، فتلك النظريات اغلبها في طور النظرية التي لم يتم اثباتها بالتجربة بالفعل.. لم يستطع أحد توليد ثقب اسود او ممر دودي داخل معمله لنقل المواد من خلاله من مكان لأخر خلال الفراغ.. لذلك اريدك ان تخبرني ما صلة تلك النظريات بوجودنا هنا في هذا القبو القديم؟

تحسس السيد ديمتريف علبته الممسك بها في حنان، ونظر اليها قليلًا ثم توجه بنظره الي، واستطعت ان اري لمعانًا واضحًا في عينيه الزرقاوتين المجهدتين، اجابني بصوت هادئ:

- لقد اخبرتك من قبل إنني قد مضيت في تجربة تلك النظريات، وانني افنيت نصف حياتي في تجربتي العلمية التي ستغير علم الفيزياء الى الابد.. تلك التجربة التي اثمرت اخيرًا في الشهور الاخيرة.. اخيرًا استطعت تحويل النظرية الى حقيقة.. اخيرًا..

ثم ادار العلبة بتجاهي وفتحها ليكمل كلامه: اخيرًا.. صنعت أول آلة للسفر في الزمكان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صُعقت من المفاجأة وانا ارمق تلك الاله المعدنية القابعه في قلب العلبة بين راحتي السيد ديمتريف.. لم اتصور ان تكون آلة الزمن بذلك الصغر، تخيلتها ماكينة كبيرة مليئة بالتروس والاذرع الميكانيكية التي تصدر اصواتًا واضوائًا وضجيجًا ودخانًا..

سألته وقد خرجت الكلمات بصعوبة على لساني:

- هذه هي آلة الزمن؟

اجابني بانفعال وقد بدا عليه الضيق:

- لا يوجد ما يسمي بآلة الزمن.. ذلك مصطلح ينم عن جهل مطلق بطبيعه الزمن.. للاسف خرج على لسان الاديب الانجليزي هـ.ج. ويلز في روايته بنفس الاسم.. الزمن ليس جسمًا ملموسًا لتكون له آلة تحركه.. ما امامك هو مولد للطاقة، يسمح بإنتاج كمية كافية لتوليد مجال اشبه بالمجال الكهرومغناطيسي لنفس المجال المتولد من الممرات الدودية.. ومن خلال ذلك المولد وبعض الاجهزة الاخرى يمكنني التحكم في قوة المجال وضعفه والتردد الخاص بموجاته لأستطيع التحكم في منفذه الاخر.. انها الخطوة الاولي على درب صنع آلة كاملة للانتقال في الفراغ، ومنه نصل الى اي زمان ومكان نريده بمجرد علمنا بالتردد المطلوب وقوة المجال وشدته.. كل ما علينا فعله هو ايجاد طريقة للتلاعب بالممرات الدودية وجعلها طوع امرنا.. وقتها يمكنني نفي الاراء التي تتنبأ بفشل تلك التجربة تمامًا..

سألته في اهتمام وقد بدأ الموضوع يتحول بالفعل لحقيقة بالنسبة لي:

- هل جربته بالفعل؟ هل انتقلت في المكان او في الزمان؟

اجاب بأسي: للاسف يا جمال.. حتى الان نتائج تجاربي محدوده للغاية.. لم أستطع ان انقل سوي عملة معدنية من حجرة الى اخرى خلال زمن قدره ساعتين.. كانت تجربه فاشلة بمعني الكلمة.. لكني لن أيأس.. سأظل مؤمنًا بعبقريتي.. لقد نقلت تلك العملة.. وسأنقل ما اريد قريبًا..

اجبته بكل صدق: اوافقك في عدم اليأس.. ولكن اعتقد ان تلك التجربة - خصوصًا مع تلك النتائج المخيبة - سيكون مصيرها الفشل بالفعل.. لماذا لا تشرك معك اساتذة القسم في تلك التجربة لعلها تتوج بالنجاح؟

نظر لي في غضب وقال بحدة: كلا.. هولاء الاغبياء ذوو العقول الفارغة لا يستحقوا ان يشتركوا في تجربة عظيمة كتجربتي تلك.. لقد ناقشتهم في ذات مرة واخبرتهم برأيي في تلك النظريات.. سرعان ما ردوا على بالسخرية والاستهزاء مني كمن سمع مجنونًا يهذي.. وقتها قررت ألا يعلم أحد بتلك التجربة إلا من يستحق شرف ان يقترن اسمه بها..

ثم أكمل كلامه وقد بدأ يهدأ قليلًا: وانا اظن أنك لن تخبر احدًا بما رأيته او سمعته.. تلك التجربة ستظل سرًا بيننا.. ليس من مصلحة أحد منا ان يعلم سر تلك التجربة..

ازدردت لعابي قلقًا واجبته: لا تقلق يا سيدي.. اقسم لك إنني لن أخبر احدًا

نظر لي لبرهة.. ثم قال: حسنًا.. لقد قضينا وقتًا طويلًا هنا.. يجدر بنا العودة للمكتب حتى لا نثير قلق أحد من الاساتذة.. ثم أكمل: بالمناسبة.. لا تخبر كاترينا أيضًا بما عرفته.. هل تفهمني؟

اومأت برأسي ايجابًا وتبعته في صمت حتى خرجنا الى باب مكتبه، وودعته ورحلت الى مكتبي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اوقفت قراءة المذكرات مؤقتًا لأرتب افكاري والتقط انفاسي.. يا إلهي.. بعض صفحات من مذكراتك وعلمت منها ما علمت.. يا تري ما القادم يا جدي؟ ان الاوراق مازالت كثيرة.. وكلماتك بحر لا ينتهي، اسبح فيه بدون راحة.. رحماك يا الله.. اجبرتني عيناي على النعاس والمذكرات مازالت بين يداي.. لأري في نومي احلامًا غريبة.. رأيت جدي يناديني، ثم رأيت نفسي في ذلك القبو المهجور.. المس الة الزمن.. اشعر بملمسها المعدني البارد واعبث في اجزاءها جاهلًا ما افعله.. يتغير المكان والزمان حولي واحلق في بلاد بعيده وازمان ودهور غابرة..

استيقظت فزعًا في الصباح التالي، لأجد امامي كارثة قد حدثت بينما كنت غارقًا في نومي الطويل..

تبًا.. تبًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9

توقف بي الزمن للحظة، مذكرات جدي ملقاة على المائدة بجانبي، وقد انسكب فوقها كوب النسكافية بالكمية المتبقية كلها على الاوراق.. يا للهول.. اسرعت لأنقذ ما يمكن انقاذه.. ولكن هيهات، لقد ارتوت الاوراق حتى يبست.. فحصت ما تبقي من الاوراق فاكتشفت ضياع ما يقرب من ثلاث ورقات بسبب تشبعهم بالنسكافية..

حاولت فصل الاوراق وتجفيفهم جيدًا او معالجتهم مما حدث.. لكن باءت محاولتي بالفشل.. ضاعت مني ثلاث ورقات قد تحمل في طياتها اسرارًا اهم مما قرأت.. بقدر امكاني احاول فك شفرة الكلمات المتداخلة مما كتب.. لكن لم أستطع.. يا لها من بداية ابدأ بها يوم الجمعه..

نظرت الى ساعتي لأجدها قد قاربت على الحادية عشرة صباحًا.. اسرعت للاغتسال والافطار ثم ارتديت ثيابي وذهبت للمسجد لأداء الصلاة..

دلفت قدماي الى مسجد الخازندارة.. أحد أقدم وأعرق مساجد حي شبرا.. ومنذ ان خطت قدمي ارضيته البارده حتى تذكرت مجيئي لذلك الجامع في فترة طفولتي، يصطحبني جدي جمال - رحمه الله - ونسير في ردهاته الممتدة، ارقب بعيناي الصغيرتين خشوع المصلين، وادقق في زخارف ابواب فصول التعليم الديني المتناثرة على جوانب ردهات المسجد.. يمسك جدي بيدي في حنان ثم يجلسني بجانبه على الحصير الاخضر البالى قليلًا.. نستمع للخطبه في صمت واستغرق قليلًا في ملاحظه نقوش المنبر فيفوتني سماع ما يقوله الامام، انظر لجدي لأسأله عما فاتني فيبتسم جدي ويطلب مني السكوت وقتها لأنتظر بعد انتهاء الصلاة ثم نتناقش في مضمون الخطبة، فيعيدها على جدي مرة اخرى وأنصت له في استمتاع..

ابتسمت في داخلي ثم خطوت لداخل المسجد، اخترت نفس موضع جلوسي قديمًا، افترشت الارض في سعاده وكأني عشيق عاد لمعشوقته.. خطا الامام في وقار درجات المنبر، ثم بدأ خطبته..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد انتهائي من صلاة الجمعة، عدت الى منزل جدي حاملًا بعض المشتروات، وقد انتابني الاجهاد عقليًا وبدنيًا.. اغلب طريقي من المسجد للبيت قضيته في التفكير فيما قرأت البارحة، وينتابني التشوق لمعرفة ما حدث بعدها.. لم انتظر طويلًا لأعرف، وصلت الى البيت في سرعه.. تركت ما اشتريته في الصالة ودخلت مباشرة الى المكتب.. امسكت بالأوراق واكملت قرائتها محاولًا استدراك ما حدث في الورقات الثلاث..

في نهاية شهرنا الثاني من التجارب، اعاد السيد ديمتريف اخباري بشكوكه كالعاده، وظللت انا غير قادر على تصديقه بالكامل.. ظننته مصابًا بقلق زائد او قد تأثر

بالقبضة الحديدية لسلطة المخابرات السوفيتية انذاك، ولكن في اليوم التالى قطعت الشك باليقين وتأكدت من صحة ما قاله..

هرعت الى مكتب السيد ديمتريف لأخبره بما سمعت.. طرقت الباب في عجل فأتاني الرد من الداخل بالايجاب.. دلفت بسرعه ثم اغلقت وراءي الباب.. اخبرته بما سمعت من حديث بين اثنين من اعضاء هيئة التدريس بالجامعه عن مراقبة المخابرات للسيد ديمتريف والتشكك بأمره..

رد على في خوف: لقد اخبرتك منذ بدأت تجاربنا في الشهور السابقة ولم تصدقني.. حسنًا.. لقد سبق السيف العزل.. يجب ان نبدأ بمحاولة اخفاء ما يدل على تجربتنا السرية.. هلا ساعدتني الآن؟

بدأنا في تقطيع وحرق بعض الاوراق المتعلقة بالتجربة ولكنها لم تكن ذات اهمية، وتأكدنا من حصولي على نسخة مصغرة من الاوراق الاساسية لأطروحة البحث.. ثم هرعنا الى القبو لنقل المعدات، وظللنا في تلك التحركات حتى حلّ علينا الليل البارد.. امرني السيد ديمتريف بالعودة الى كاترينا ومساعدتها في رعاية زينب بشكل عادي وكأننا لا ندري شيئًا بخصوص المخابرات.. سألته عما سيفعله، اخبرني بضرورة بقائه في مكتبه لإنشغاله بأمور إدارية، ولكنه حاول ان يبدو مطمئنًا خاصةً انه الآن لا توجد أي ادلة تثبت تجربته السرية.. لم اقتنع بمحاولته ودعوت الله سرًا ان ينقذنا من اهوال الوقوع في قبضة مخابرات الـ كي.جي. بي السوفيتية..

عدت الى كاترينا والقلق يبدو على محياي.. ظهر التساؤل عليها ولكنني طمأنتها واخبرتها انه مجرد ارهاق بسبب العمل ليس أكثر.. اضطجعت بجانبها وبجانب زينب على فراش غرفتنا محاولًا النوم.. وقتها جاء النوم بعد ارق متواصل طوال تلك الليلة السوداء..

استيقظت صباحًا على بكاء كاترينا، استبد بي القلق، سألتها عما يبكيها، اخبرتني ان والدها قم تم القاء القبض عليه أمس ليلًا بواسطة رجال المخابرات السوفيتية.. مادة الارض بي من الصدمة.. لقد فعلوها!!

اتجهت الى الجامعه، ولم أستطع ان اسأل عما حدث حتى لا يتم الاشتباه بي، هكذا امرني السيد ديمتريف في حالة حدوث ما حدث، ولكني بطريقتي جمعت اجزاءًا من احداث الامس وكوّنت منها الصورة الكاملة..

لقد اقتحم الجنود مكتب السيد ديمتريف واقتادوه بكل قسوة الى سيارة الامن.. بعدما قاموا بتفتيش مكتبه بكل عنف ووحشية، واستطاعوا العثور على مولد الطاقة بالفعل ومعه بعض الاوراق التي توضح التجربة.. لماذا لم تحرق ما تبقي يا سيد ديمتريف.. ها انت الآن قد صرت في قبضتهم وسيقتادوك الى معتقل سيبريا الدامي، حيث يتم إلقائك في غياهب السجن وتُعامل كالدواب بل اقل منها.. لك الله يا سيد ديمتريف.. سأفتقدك بالفعل..

كانت تلك سنتي الاخيرة في الاتحاد السوفيتي، وسألوني وقتها ما إذا رغبت في الاستمرار بالعمل في الاتحاد كأستاذا بجامعه موسكو الوطنية او جامعه سان بيترسبرج ام اعود الى بلدي مصر حاملًا شهاده البكالوريوس في مجال الفيزياء.. بالطبع اخترت العودة الى ارض الوطن.. لم يعد لي ما يبقيني في الاتحاد بعد ما حدث للسيد ديمتريف.. كما كان يجب ان اهرب من قبضتهم، وان ابعدهم عما احمل من نواة لتجربة السيد ديمتريف التي يعلم الله وحده كيف صارت وكيف ستنتهي..

عدت الى مصر سالمًا حاملًا شهادتي وشنطتي وابنتي وبجانبي كاترينا زوجتي العزيزة.. بعد حادثة والدها المفجعه وعلمها بوفاته في المعتقل بسبب ضعفه وعدم تحمله للتعذيب المستمر هناك.. لم تعد ترغب في الحياة بالاتحاد مرة اخرى.. واخبرتني برغبتها في العودة معي الى مصر والاستقرار بها بصورة نهائية..

عدت الى مصر لتبدأ مرحلة جديدة من حياتي.. صرت فيها استاذا جامعيًا في جامعه القاهرة، احصل على مرتب يكفيني قليلًا ولكني لا ابالى بتلك المظاهر.. يكفيني رضا والدتي ووجود عائلتي بجانبي..

انشغلت في دوامة الحياة.. وقبعت اوراق السيد ديمتريف في درج مكتبي لسنوات عديدة.. نضجت ابنتي زينب وصارت شابة جميلة ورثت البشرة البيضاء والعيون الزرقاء من والدتها، والذكاء والروح المصرية من والدها.. كانت كالملاك -رحمها الله في شكلها وتعاملها مع من حولها.. حمدت ربي على هبته الغالية.. واستطعت ان اعلمها واربيها خير تربية وخير تعليم.. حتى حصلت على مجموع متميز في الشهاده الثانوية الحقها بكلية الهندسة.. وظلت على تفوقها خلال سنوات الدراسة.. وفي السنة الثالثة اخبرتني زينب انها تكن مشاعر خاصة لأحد زملائها في الكليه.. وانه طلب منها الزواج.. سعدت بذلك الخبر جدًا واخبرتها بموافقتي المبدئية.. جاء الفتي في موعده حسبما اتفقنا.. ومن الجلسة الأولي استبشرت به خيرًا وعلمت منه مستوي ثقافته وتعرفت منه على سمعه اسرته.. ثم سألته في النهاية عن مستواه المادي.. فأنا لا اهتم بالماده كثيرًا بقدر ما اهتم بمن امامي.. اخلاقه.. افكاره.. معاملته للناس.. اخبرته بموافقتي على زواجه من ابنتي.. علمت بعد ذلك انه اتخذ قرار زواجه بدون موافقة عائلته بسبب الفرق بين المستوي المادي للاسرتين.. وانه استطاع في النهاية ارغامهم على الموافقة لعدم اقتناعه بوجهه نظرهم ولمدي عشقه لإبنتي..

باركت زواجهم وكانت ليلة الفرح من أجمل ايام حياتي.. حيث رأيت ابنتي تُزف الى زوجها، وانهمرت الدموع من عيني زوجتي، ضاحكتها وقتها وسألتها عن سبب بكائها لتجدني أبكي انا الاخر فامتزجت ضحكاتنا ودموعنا..

انتقلت زينب لمنزل زوجها القريب من منزلنا، فعاد منزل اسرتنا خاليا.. لا يجمع بداخله سواي انا و كاترينا.. مرت حياتنا هادئة يقطعها زيارات زينب وزوجها عبد الرحمن الاسبوعية، حاملين معهم البهجة والسعاده لمنزلنا الدافئ..

بعد سنة من زواج زينب.. اكتشفت كاترينا ورمًا بثديها.. ذهبنا لإجراء الفحوصات الطبية.. وجاءت النتيجة للاسف بتأكيد وجود ورمًا سرطانيًا في مرحلة متأخرة في الثدي الايمن.. حلّ الحزن والهم على بيتنا، وبدأت كاترينا في جلسات العلاج الكيماوي لمدة ستة أشهر، ثم انتقلت الى الرفيق الاعلى بعدها تاركةً اياي وحيدًا ببيتنا الذي كان دافئًا في فترة من فترات العمر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكما يُقال.. المصائب لا تأتي فرادي.. توفت والدتك زينب بعدها بعام ونصف اثناء ولادتك.. لم اهنأ برؤيتك كثيرًا فلقد اخذك والدك في كنفه بإيعاز من والدته مستغلًا حقه القانوني في رعايتك.. ولم يكف عمك كمال - سامحه الله - عن بث سمومه في ذهن والدك ومحاولة إبعاده وإبعادك عني.. حتى رضخ لضغوط اسرته وانقطع عن رؤيتي او زيارتي.. وقتها انكببت على عملي ودراستي.. وبدأت في تكوين مكتبتي وكانت بالفعل تلك المكتبة هي خير جليس لي في تلك السنوات المظلمة من عمري..

بعدما توفي والدك وزوجته في حادثة السيارة.. رغبت في ضمك الي.. لن اضيع فرصة وجودك معي لمرة ثانية.. وبعد مناقشات دامت لمده سنة بيني وبين عمك كمال.. ساندني فيها صديقي العزيز المحامي عبد الله هلال.. استطعت ان أقنعه بتربيتي لك حتى تبلغ سن الرشد على الاقل.. وافق على مضض وقتها وظل يهددني بالويل في حالة عدم الوفاء بوعدي له..

انتقلت لتسكن معي، وكانت أفضل سنوات عمري تلك التي قضيتها معي، فكانت خير تعويض من الله لي عما قاسيته وعانيته في سنوات عمري الماضية.. استطعت ان انشئك التنشئة السليمة القويمة كالتي انشئت والدتك - رحمها الله - عليها.. وكنت انت الزهرة التي اورقت بين جدران بيتي الذي افتقد للدفء منذ سنوات..

اتذكر استماعنا للموسيقي الكلاسيكية التي اعشقها والتي استطعت ان اسقيك عشقها ايضًا، وابداء اعجابك بمكتبتي الزاخرة بشتي انواع الكتب القيمة.. اتذكر اصطحابي لك للمسجد، ورحلاتنا العديدة في انحاء مصرنا الغالية.. استطعت ان اري فيك نفسي التي غابت عني لعقود طويلة.. تذكرت فيك طفولتي السعيده مع والدي الحبيب.. لقد كنت يا أدهم أفضل هدية اهداني اياها الله.. وكم احمد الله على وجودك معي تلك الفترة..

ولكن يبدو ان حياتي قد اعتادت على فترات السواد أكثر من اللازم، حتى صارت تشتاق الى الحزن بعد اي فرح يصيبني.. فلقد مرّ الوقت بسرعه وقد صرت فتيًا في مقتبل الشباب وقد حان اوان الوفاء بالعهد.. شقّ على ذلك.. بعدما رأيتك تنمو امامي كل تلك السنوات وتتفتح ورودك وتنشر عطرها في ارجاء حياتي.. ها قد اتي منجل القدر ليقطفك مني.. وقتها اتذكر كم رجوت عمك ان يطيل بقاءك معي او ان يتركك لي.. لم أجد منه الا القسوة في المعاملة وعدم الاحترام لفارق السن على الاقل.. فأهانني واعتدي على باللفظ والفعل، واتهمني بالخرف والجنون.. وبدأ تحركاته القانونية لضمك اليه نهائيًا.. واستطاع بواسطة عصابته من المحامين ان ينتزعك مني بالفعل مع تعهد بعدم الاقتراب منك الى الابد.. كم احزنني ما آل اليه الوضع

وقتها.. لم انس دموعك التي ذرفتها في ذلك اليوم.. ووعدك لي بالعودة في أقرب فرصة.. كان ذلك اليوم ختامًا شديد السوء لفترة من أجمل فترات عمري..

ظللت لفترة في عدم توازن.. لم أستطع الافاقة من صدمة فقدانك.. وفي يوم من الايام كنت جالسًا كالعادة بمكتبي، واثناء مطالعتي كتابًا من كتبي.. انتابني بعض من الشرود.. تذكرت جملة قيلت لي من سنين عديدة.. في ارض بعيده عن ارضنا.. تذكرت اجتماعي بالسيد ديمتريف في ذلك القبو المهجور ذي الاضاءة الخافتة.. ترددت كلماته في اركان عقلي وكأنني اسمعها الآن..

.. ذلك السر سوف يغير من حياتك الى الابد.. وانت الوحيد الذي اراه جديرًا بأن يعلمه معي.. وان تحمل الراية من بعدي إذا توفيت.. فهل ستثبت لي جدارتك بالفعل؟

امتدت يدي لا شعوريًا الى درج مكتبي الذي تراكم عليه التراب لسنوات.. اولجت المفتاح في قفله وادرته لأجد امامي الاوراق الاولي لبحث السيد ديمتريف.. ترددت كلماته في ذهني.. لتتكون بدايات فكرة جنونية في اعماق عقلي.. فكرة لم اعلم انها ستغير حياتي الى الابد بالفعل.. سوف أكمل تلك التجربة.. سوف اصنع بنفسي أدلة الزمن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10

توقفت لبرهة محاولًا فهم ما قرأته، وبالرغم من إعادتي لقراءة تلك الفقرة الاخيرة، إلا أنني اصابني الذهول بالفعل.. يا تري هل استطاع جدي فعلها؟؟ امسكت بالورقة التالية لها وبدأت في استكمال القراءة..

نظرت لأوراق السيد ديمتريف وقد انتابني الحنين لتلك الايام، وقت ان كنت مساعدًا له في تجربته المذهلة، تذكرت اعدادنا و نقلنا للأدوات في سرية خوفًا من افتضاح امرنا بواسطة رجال المخابرات السوفيتية.. وهذا ما حدث في النهاية للاسف.. تُري هل ندم السيد ديمتريف على تجربته تلك؟ هل أخبرهم بطريقة عمل الالة؟ ان الروس ليسوا بالأغبياء.. وعلماؤهم قادرون على فك شفرة الآلة.. ولكن تجربة السيد ديمتريف لم تكن بالتجربة العادية.. لقد كانت أعظم تجارب العلم في العصر الحديث.. لا اعتقد ان لأحد الامكانية ان يفك سر تلك الآلة.. أأمل ذلك..

امسكت بأوراق السيد ديمتريف.. تحسست غلافها السميك.. ثم قرأت اول ورقة.. دمعت عيناي عند قرائتي لكلماته المسجلة بخطه المميز، رحمك الله يا سيدي.. لقد قتلك المعذبون نتيجةً لعلمك وعبقريتك.. يا لهم من اغبياء.. انهم بالفعل لا يستحقون وجودك بينهم على نفس الارض..

التهمت عيناي تلك الاوراق التهامًا، وبعد كل ورقة انتهي من قرائتها، ازدادت فكرة صنع الالة جموحًا.. انني واثق من قدرتي على صنعها.. فتلك الاوراق توضح بعناية الافكار الاساسية للتجربة، بل وتضع عديد من الاطروحات العلمية مع الحلول المناسبة لها.. وبالاضافة لخبرتي المكتسبة من فترة مساعدتي للسيد ديمتريف بإمكاني ان أكمل ما بدأه وان أصل للمرحلة التي وصل اليها سيدي ديمتريف.. كما أنني الآن قد تقدم بي الزمن وبالتأكيد فإن التطور الحالى في الفيزياء يرجح كفتي كثيرًا عن حالة الفيزياء وقت ان قام السيد ديمتريف بإختراع الآلة..

بعد حوالى سبع ساعات متواصلة من قراءة تلك الاوراق وتفنيدها، تمكنت اخيرًا من انهائها.. وضعتها أمامي على مكتبي، وظللت لدقائق أحدق بها شاردًا.. اثق بقدرتي فعلًا على صنع الآلة.. بل وتطويرها.. لكن كيف أستطيع ذلك بمواردي المحدودة؟ ستكلفني تلك الفكرة الكثير والكثير من الاموال.. تذكرت وجود بعض الاراضي الزراعية المملوكة لوالدي رحمه الله.. والتي كانت تدر ريعًا شهريًا مقبولًا.. قررت ان ابيع تلك الاراضي لتوفير المال اللازم لتجربتي.. اسرعت للهاتف.. وبالرغم من تأخر الوقت.. استطعت التحدث مع أحد اقاربي من سكان قريتنا اعلمه انني قررت بيع الارض فورًا وان يبحث عن اعلى سعر للشراء.. وعدني بمعاودة الاتصال بي بعد ايام ليعلمني بنتيجة ذلك..

اغلقت الهاتف وقد انتابني التوتر.. سوف افعلها.. لقد بدأت العجلة في الدوران..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جاءني الرد بعد ثلاثة ايام، واخبرني قريبي وقتها بالسعر المطلوب.. وجدت السعر مناسبًا بالفعل، بل إنه أكثر من مناسب.. وافقت بلا تردد.. وذهبت في اليوم التالى لأنهي الاجراءات المطلوبة و استلم النقود.. بعد ان انتهيت من كل ذلك.. امسكت بالنقود في سعاده.. لقد صار الحلم حقيقة..

عُدت الى منزلي.. سوف يصير معملي وصومعتي الآن.. بدأت في الايام التالية التجهيز للتجربة.. استطعت احضار بعض المعدات والاجهزة اللازمة.. وقمت بتركيبها وتوصيلها للبدء بلا توقف..

استطعت بعد حوالى عشرة ايام ان انتهي من اعداد المعمل.. الآن يمكنني ان ابدأ.. اتجهت للأوراق الموضوعه على مكتبي.. وامسكت بها بكل حماس.. ذهبت لناحية السبورة السوداء التي وضعتها على الحائط لإستعمالها في كتابة المعادلات وتحضيرها.. خططت البسملة.. ثم بدأت في كتابة المعادلات..

سطرًا بعد سطر.. ازداد احترامي للسيد ديمتريف.. لقد استطاع ذلك العالم الفذ فعلًا ان يستنتج المعادلات الصحيحة لتلك التجربة.. لقد سارت التجربة بنجاح شديد.. وخلال عامين من الكد والعمل الشاق والانعزال عن العالم من حولي.. استطعت ان اخترع جهازًا اوليًا يسمح بتطويره بعد ذلك لآلة النقل في الزمكان.. مازلت مقتنعًا بجمله السيد ديمتريف.. كلمة آلة الزمن تعبير خاطئ وجاهل علميًا.. نحن علماء لا يمكننا ان نقع في تلك الهفوة..

امكنني تجربه الجهاز لأول مرة بعدها بأسبوع.. اعددت المكان جيدًا.. ووضعت قطعه من الورق الصغيرة امام الجهاز، قمت بضبط اعدادات النقل والاحداثيات.. ووضعت المكان النهائي لها على بعد مترين من الجهاز.. بدأت في تشغيل الجهاز وبدأ بالفعل في توليد الطاقة.. توهجت الورقة بشدة.. وبدأت في التذبذب قليلًا.. ثم فجأة.. اشتعلت..

اسرعت لإطفائها خوفًا من ان تمتد النار لباقي المواد من حولها.. تحولت الورقة الى رماد اسود.. وتحولت انا معها لكتلة من الغضب والقلق..

لم ادرِ سبب فشل التجربة.. لقد قمت بالإعداد جيدًا لها، وجميع المعادلات تؤكد صحة التجربة.. بل أن السيد ديمتريف في مرحلة سابقة امكنه نقل عملة معدنية.. انتابني اليأس قليلًا وفكرت في ترك التجربة بالكامل لاعنًا غبائي وجهلي.. كيف استطعت ان اقارن نفسي بأستاذي السيد ديمتريف؟ وكيف تصورت انه بإمكاني صنع الة الزمن تلك؟؟ لم ابالِ بتعريفها الان سواء كانت الة زمن او إله نقل في الزمكان او حتى الة لصنع الكعك.. في النهاية لقد فشلت في صنعها.. انتابتني تلك الحالة لحوالى اسبوع.. ثم حاولت بعدها تجميع شتات نفسي وتذكر نصائح والدي والسيد ديمتريف..

لا تيأس..

ان فشلت.. حاول كثيرًا حتى تصل لما تريد..

ان كان النجاح سهلًا، لنال الجميع ما يصبو اليه..

ثق بالله، وبقدرتك، وابدأ من جديد..

تذكرت تلك الكلمات، واقنعت نفسي بها جيدًا.. عدت مرة اخرى للبدء في التجربة، قمت بإعادة كل المعادلات املًا في التوصل لنتائج جديدة، استطعت بعد شهر ان أدرك خطأ التجربة.. لقد كان السبب هو إهمالى لبعض العوامل الجانبية المؤثرة على المجال المحيط، وبالرغم من تفاهة تلك العوامل - من وجهه نظري - لكنها كانت سببًا في فشل التجربة لأول مرة..

قمت بإعداد التجربة للمرة الثانية، وتأكدت من صحة كل تلك الاعدادات.. اتجهت لآلة التوليد.. وبدأت في وضع قطعه الورق امام الجهاز، اتجهت للوحة الارقام وضغطت التردد المناسب، بدأت الورقة في التوهج قليلًا، ثم بدأت مرحلة الذبذبة..

كاد قلبي ان يتوقف هلعًا من النتيجة، انني الإن بالمرحلة الحرجة التي يبدأ فيها الجسم ان ينتقل عبر ممرات دودية مجهرية لا تُري، تتجمع سوية لصنع ممرًا دوديًا أكبر يمكنه نقل الجسم من مكان لأخر.. بدأت الورقة في التقلص.. انها تنتقل!!

اسرعت الى مكان وصول الورقة، وقد بدأت اجزاء من الورقة في الظهور.. لقد نجحت التجربة.. انها تنتقل.. كدت أطلق صرخة فرح عارمة.. عندما انقطع المولد عن العمل.. لتنطلق الصرخة بالفعل ولكنها محملة بغضب لا نهائي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اذن لقد كان نقص الطاقة هو السبب في انقطاع عمليه النقل.. لا مشكلة.. بدأت في البحث عن مصدر طاقة أكثر قوة من مولد الجازولين البدائي ذلك.. وقتها كانت المولدات الكهربية القوية باهظة الثمن قليلًا بالنسبة لميزانيتي المحدودة.. حاولت في تلك الفترة ان استفسر عن ذلك النوع من المولدات.. حتى عثرت بالصدفة عن مولد مستعمل لدي عالم زميل لي في الجامعه، رجيته ان يعيرني إياه فوافق بعد تردد وعدم اقتناع.. بعدها بثلاثة اسابيع.. توفي ذلك الزميل، ذهبت الى عزائه بصحبة لفيف من الزملاء لتقديم الواجب.. بعد ان انتهي العزاء انتحيت جانبًا بأخ الفقيد وحادثته في موضوع المولد الذي استعرته من اخيه المرحوم..

اجابني بكل عصبية: مولد ايه؟ خلاص يا استاذ.. مش عاوزين حاجة من الفيزيا دي.. مش كفاية انها كانت السبب في موت أخويا؟ هو اللي جراله دا كان بسبب ايه؟ بسبب تعبه ونرفزته من الشغل في الفيزيا.. واهو دا اللي اخدناه منها..

وأكمل كلامه بالسب واللعن للفيزياء والفيزيائيين منذ اول التاريخ وحتى الان.. هممت بالرحيل قبل ان تنالني لعناته شخصيًا.. حمدت الله على جهل بعض الناس.. وكما يقول المثل مصائب قوم عند قوم فوائد.. لقد استطعت الاحتفاظ بالمولد بالرغم من الحاحي الشديد على عائلة المرحوم.. لقد كان ذلك توفيقًا إلهيًا صرفًا.. فلولا المولد ما كنت استطعت إكمال تلك التجربة.. حمدًا لله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عدت الى المنزل وكلي تشوق لإكمال التجربة.. اعددت المولد جيدًا وتأكدت من توفر الطاقة اللازمة للتجربة، اعدت ضبط الاعدادات للمرة الثالثة، ولكني في تلك المرة كنت متأكدًا من نجاح التجربة - بإذن الله - وضغطت على زر البدء.. هدرت الآلة بادءةً صنع الممرات الدودية اللازمة للنقل، وتابعت بشغف تفتت الورقة وبدء نقلها، انتقلت الى الموضع الآخر، وامامي تتكون الورقة بالفعل، استمرت تلك العملية حوالى عشر دقائق كاملة، حتى اعلنت شاشة الجهاز انتهاء النقل.. نظرت الى الورقة بذهول.. أفعلتها حقًا؟؟

امسكت بالورقة بين اناملي وتأملتها كمن يتأمل عشيقته.. انها هي بالفعل.. بنفس ملمسها واطرافها الحادة.. لقد نجحت التجربة بالفعل!!

سجدت لله ركعتي شكر، لقد فعلتها.. اكملت تجربة السيد ديمتريف بنجاح، بل إنني وصلت لنتائج تفوق تلك النتائج التي وصل هو اليها.. كافئت نفسي براحة لمدة اسبوع استمتع فيها بزيارة الحدائق من حولي، لقد انعزلت تلك الفترة السابقة عن أي مظهر من مظاهر البشر، كنت كالراهب في صومعته، تاركًا العالم من حولي في صراعاته ومشكلاته التي لا تُحل، استطعت انجاز ما لم ينجزه بشر من قبل.. اخذت اتطلع لوجوه الناس من حولي، سألت نفسي ماذا سيكون رد فعلهم إذا امتلكوا الوسيلة للسفر في الزمن؟ هل يمكن تصحيح اخطاء الماضي؟ وهل إذا أصلحوها.. ما هي النتيجة؟ هل نضمن عدم تكرار تلك الاخطاء؟ كم من قرارٍ اتخذناه وندمنا بعد ذلك؟ كم من شخصًا فقدناه.. ونأمل ان نراه او نلمسه لثواني معدودة مرة اخرى؟ عندما جال ببالى ذلك الخاطر تذكرت احبابي الذين فقدتهم.. تذكرت ابي رحمه الله.. وابي الروحي السيد ديمتريف.. مرورًا بأمي الحبيبة.. كاترينا حبيبة عمري.. ثم زينب.. تلك الزهرة التي أنعشت حياتي بعبيرها..

تأملت الوجوه السعيده لأفراد اسرة مكونة من اربعه افراد مرت بجانبي وقتها.. تذكرتك يا أدهم وقتها.. وتذكرت وقتها لأول مرة انني صرت بالفعل وحيدًا.. بعيدًا عن تجربتي ومكتبتي وانشغالى بعملي.. انا وحيد.. ليس لدي من اعوله او من يهتم بوجودي.. بل إنني إذا توفيت بشقتي.. فمن الاكيد انه لن يعلم أحد بموتي إلا إذا فاحت رائحة جثتي..

انزعجت من ذلك الخاطر.. وحاولت ابعاد تلك الافكار السوداء عن رأسي.. وانشغلت ببعض الافكار الفلسفية التي ناقشني فيها السيد ديمتريف في مرة من المرات بخصوص موضوع السفر في الزمن.. وقتها اتذكر حواري معه في ذلك القبو.. سألني عما سأفعله ان امتلكت القدرة على السفر في الزمن.. اجبته حينها:

- سوف اعود للماضي بالطبع لأغير اخطاء التاريخ.. سوف احاول الغاء الحروب والكوارث لأنقذ الملايين من ضحايا تلك الحروب..

ابتسم السيد ديمتريف، وقال: أنك تملك قلب ملاك يا عزيزي جمال.. نواياك سليمة.. ولكن للاسف لا يمكننا المخاطرة بذلك.. من القواعد الرئيسية التي يجب ان تعلمها انه لا يجب عليك بأي حال من الاحوال ان تؤثر على مجري الزمن بأي تغيير..

اكتفي بالمشاهده فقط.. يكفي وجودك في زمن مغايرعن زمننا.. أي تغيير زائد في الماضي يمكنه أن يلقي بظلاله على الحاضر..

تنهد في أسي ثم أكمل: تخيل لو أنك تسببت بدون قصد في مقتل أحد اجدادك.. او منعت مقابلة بين جدك ومن ستكون زوجته بعد ذلك.. أنك تهدد وجودك ذات نفسه.. حينها ستختفي فورًا من الوجود.. وكذلك بالنسبة لأي شخص اخر في العالم.. بما يحمل من تأثير على التاريخ.. تخيل لو أنك اذيت من سيكون والدًا لقائدًا عظيمًا فيما بعد.. للزمن قواعد خطيرة لا يمكن التهاون بها.. وإلا حدث مالا يُحمد عقباه..

وقتها تنبهت بالفعل لتلك القاعده الخطيرة.. ومع مرور الايام تعلمت اكثر واكثر عن قواعد الزمن.. وتناقشت مع السيد ديمتريف عن العديد من اشكاليات السفر في الزمن.. اجابني وقتها بجمله رائعه ظلت في بالى دائمًا وقت عملي بالتجربة.. قال:

كل من يشكك بنظرياته في موضوع السفر في الزمكان.. اعتمد في كلامه على النظرية فقط.. لم يحاول تجربة تلك النظرية على ارض الواقع.. العلماء يتفلسفون احيانًا.. بينما هم أجدر الناس بالتجربة، وها نحن على ارض الواقع نثبت انه يمكننا ذلك إذا جربنا واستمررنا في تجاربنا حتى نصل..

منحتني جملته تلك الدفعه المعنوية اللازمة لإكمال ابحاثنا في تلك التجربة.. حتى حدث ما حدث وانتهي كل شئ.. ولكنني الآن بما وصلت له من تقدم.. قادر على صنع الفرق.. قادر على الوصول لأبعد مما وصل له السيد ديمتريف.. يا له من شرف.. ويا له من فخر!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قطع قرائتي للمذكرات صوت رنين هاتفي المحمول.. وضعت الاوراق بعناية في الصندوق وقمت للرد على الهاتف.. فإذا به صديقي صبحي.. تلهفت للرد عليه..

- ألو.. ايوا يا صبحي

- ألو.. ازيك يا أدهم عامل ايه

- تمام الحمد لله.. هاه.. طمني كده ايه الاخبار؟

- الاخبار تمام.. الحمد لله انا كويس..

اجبته بسخرية: يابني وانا مالى بأخبارك.. انا اقصد اخبار موضوع الاثار ايه؟؟ الدكتور قاللك ايه؟

-اااااه.. الاثار.. لأ انا لازم اقابلك علشان اقولك..

اثار ذلك حنقي.. سألته عن السبب.. اجابني انه يرغب في جعل السبب سريًا.. لم أكن في بال يسمح لي بمزيد من الاسرار.. استمر في اصراره وطلب مني موافاته لإحدي المقاهي التي طالما اجتمعنا عليها قديمًا في فترة المراهقة.. وافقت على طلبه

بنفاد صبر.. وذهبت لغرفة جدي لإرتداء ملابسي والنزول الى صبحي.. اثناء مروري في الصالة نظرت الى صندوق المذكرات على مكتب جدي.. انتابني مزيد من الشوق لمعرفة ماذا حدث بعد ما قرأت.. ولكنني صبرت نفسي بالامل في سرعه العودة وألا اضيع وقتًا مع صبحي.. سوف اعلم منه ما يريد اخباري به ثم اعود فورًا لمكتب جدي.. نظرت نظرة اخيرة للمكتب ثم اغلق باب المنزل وذهبت الى صبحي..

اتجهت الى ناصية الشارع المقام به ذلك المقهي القديم.. وجدت صبحي منتظرًا على بعد أمتار من المقهي.. اتجه الى في عجل.. وطلب مني اغلاق عيني.. لم احتمل تلك التصرفات الطفولية.. ألحّ على كعادته.. اضطررت لإغلاق عيني والرضوخ له آملًا في الانتهاء من ذلك السخف.. امسك بيدي وارشدني للمقهي.. ثم طلب مني ان انظر امامي.. يا إلهي.. لم اصدق ما اراه امامي.. كانت مفاجأة بالفعل!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11

سربرااااااايز!!

قالوها بكل سعاده.. لأرد عليهم انا بكل دهشة:

يا ولاد الـ....

كانت بالفعل مفاجأة غير متوقعه على الاطلاق.. لقد تمكن صبحي بطريقة ما ان يجمع اصدقاء الطفولة مرة اخرى.. احمد ياسين.. خالد عبد الرحيم.. شريف البهنساوي.. يوسف مدكور.. جميعهم امامي وعيونهم تنبض بالفرحة والانفعال..

انطلقت نحوهم وكأنني اسابق الرياح.. احتضنوني واحدًا تلو الاخر بكل شوق ولهفة، دمعت عيوننا جميعًا غير مصدقين ما نراه، بعد ما يقرب من عشر سنوات من الفراق.. ها نحن نجتمع مرة اخرى.. اختلفت هيئاتنا قليلًا.. نضجنا وصرنا رجالًا ولكن لم تتغير شخصياتنا ولا عقولنا.. ما زلنا نحمل في قلوبنا روح المراهقين الشغوفة الثائرة..

بعد فاصل طويل من الاحضان والقبلات وتبادل السلام الحار.. ارتمي كل منا على كرسيه في ارهاق.. كانت شدة اللقاء فوق قدرتنا على التحمل.. انني احلم.. بالتأكيد انا في حلم.. حلم جميل.. اصدقائي الاعزاء امامي الآن.. كم من أحاديث ارغب في مناقشتها معهم.. وكم من ذكريات نتذكرها.. اتذكر اجتماعنا في الفصل في المرحلة الاعدادية.. كنا شلة واحده.. يعلمنا جميع معلمين المدرسة بالاسم.. كنا بالفعل طلبة مشاغبين.. ولكننا ايضًا كنا ممن ينالون الدرجات النهائية في اغلب المواد.. كنا لغزًا كبيرًا في عقول المعلمين.. ومن لم يأبه منهم بنا، اقتنع ان الغش هو السبب في تفوقنا.. لا يمكنني انكار اننا كنا نغش معًا قليلًا.. كعادة اغلب الطلاب في اي مكان على سطح الارض.. لكننا بالفعل كنا متفوقين دراسيًا.. انعم الله علينا بعقول متوهجة.. استعملناها في الشغب وفي الدراسة ايضًا.. لذلك استمر تفوقنا واستمرت شهرتنا طوال فترة الاعدادية ثم الثانوية بعدها.. فرقت بيننا لجان الامتحانات بسبب اختلاف الحروف الاولي من اسمائنا.. ولكن لم يمنعنا ذلك من ان تستمر صداقتنا داخل وخارج المدرسة..

اتذكر لهونا ولعبنا لكرة القدم بشوارع شبرا المتفرعه.. شهدت تلك الشوارع مهاراتنا المتنوعه.. بدءًا بمراوغه الكرة ثم اللاعبين ثم اصحاب المحال التي تنالها ركلاتنا الفائقة للكرة.. كنا شياطين في هيئة عدة مراهقين.. وإن كنت لا اري فرق بين الشياطين والمراهقين..

اتذكر تناولنا للشطائر في محلات شارع شبرا المحبب والاثير الى قلبي دائمًا.. اتذكر تجولنا في دوران شبرا مستمعين بتناول المثلجات في صيف اغسطس المشتعل بينما يسير بجانبنا المواطنين الغارقين في بحور العرق وتحترق حلوقهم بنيران الظمأ..

اتذكر حبي الاول.. تلك الفتاة في مدرسة البنات المجاورة لمدرستنا.. انتظر خروجها من مدرستها لأراها.. وبكل براءة امر بجانبها لعل سهم كيوبيد يصيبها فتراني.. ولكن للاسف ظل ذلك الحب مخبئًا في قلبي حتى مرت السنين وتباعدت المسافات فظلت تلك الفتاة في جزء متوارٍ من ذاكرتي.. يا تري اين هي الآن؟ وماذا صارت؟ وهل تزوجت ام ما زالت عزباءً؟ انني حتى لم اعلم اسمها او اين تسكن.. لقد كانت مشاعرنا جميعًا في قمة البراءة في تلك الفترة.. حتى صرنا شبابًا وانزاح غطاء البراءة عن عيوننا فرأينا العالم من حولنا على هيئته الحقيقية..

اتي النادل بالمشروبات الساخنة.. واخذ كل من الجالسين كوبه وبدأ في ارتشافه باستمتاع.. تأملت وجوههم في تأثر.. على جانبي الايمن يجلس صبحي بشعره المجعد وبنيته الواهنة قليلًا.. ثم احمد ببشرته البيضاء وشعره الذهبي.. الامريكاني كما نحب ان نطلق عليه منذ ان عرفناه.. بجانبه خالد و يوسف المتلازمان دائمًا كالتؤام السيامي.. خالد يميل للبدانة قليلًا.. و يوسف ممشوق القوام.. ولكني دائمًا اعتبرهم كالاخوين لتلازمهم دائمًا، وبالرغم من اختلاف طباعهم قليلًا، حيث أن خالد دائمًا يميل للهزر والضحك بصوت عالي، كان يوسف عصبيًا بعض الشئ، ولكن وقت ان يجتمعا تذوب الفوارق فأشعر بالفعل وكأنهم تؤام لأم واحده وأب واحد.. ثم على جانبي الايسر عبقري الشلة شريف اعز اعضاء الشلة الى قلبي.. ربما لتشابه اهتماماتنا وطريقة تفكيرنا.. ويجمع بيننا حبنا للقراءة.. صار من ذوي العيون الاربع.. تلك العوينات التي يرتديها الآن اعطته مظهرًا أكبر من عمره الحقيقي قليلًا.. ولكنه كما هو.. وقورًا هادئًا مبتسمًا دائمًا..

بدأ الحديث بيننا وتحدث كل منهم بشكل مقتضب عن احواله الاجتماعيه الآن.. شريف سيتزوج في فترة خلال شهرين.. باركت له بكل فرح بمجرد ان قالها.. وأكمل الباقين كلامهم و ابتسامتي تتسع و قلبي يرقص طربًا لهم، انهم لي كإخوة بالفعل، ليسوا مجرد اصدقاء او زملاء دراسة.. و اخبرني يوسف انه قد تقدم لخطبة احدي زميلاته في العمل، حيث يعمل مع يوسف في شركة تجارية شهيرة كمحاسبين اداريين، ليعقّب خالد على كلامه ضاحكًا:

و انا بأه مش معقولة اسيب يوسف لوحده كده

سألته بسخرية: ايه.. خطبت خطيبة يوسف؟

اجابني: لا وانتا الصادق.. خطبت اختها ثم ارتج جسده البدين من الضحك.. تضاحكنا جميعًا وسألته وسط ضحكاتي التي لم استطع ايقافها: لأ بجد.. خطبت اختها فعلًا؟

اجابني: اه والله.. يوم ما يوسف راح يخطب اميرة.. رحت معاه زي كأني أخوه.. شفت اخت العروسة حبيتها من اول نظره.. بنت امورة كده ودبدوبة زيي.. داحنا لما نتجوز هنخلف افيال مش اطفال

كانت قد قاربت ضحكاتي على الخفوت والانتهاء، فجاءت تلك الجمله الاخيرة لتبدأ ضحكاتي وضحكات باقي افراد الشلة في التزايد مرة اخرى حتى لفتت ضحكاتنا انظار الجالسين من حولنا..

دمعت عيني من شده الضحك.. بدأت اجسادنا في الهدوء بعد ذلك الفاصل المثير للضحك.. وأكملنا حديثنا و السعاده تتراقص على وجوهنا.. سألت احمد و قد حاولت اضفاء بعض الجد على نبرة صوتي:

وانتا يا امريكاني.. مش شايف ف ايدك دبلة ولا حاجة.. هو الامريكان مش بيلبسوا دبل ولا ايه؟

ضحك احمد ثم اجابني: لا يا عم.. بيلبسوا زي بقية الناس.. بس انا مش ناوي ارتبط خالص..

اجبته بكل سخرية وقد تصنعت الدهشة: يا نهار اسود!! انتا لا مؤاخذة.. شاذ ولا ايه؟

انبعث ضحكاتنا تلك المرة اعلى من اي مرة سابقة.. اجابني احمد بسرعه:

الله يخرب بيتك.. هتوديني ف داهية.. لأ يا عم الحمد لله انا تمام اوي.. هاهاهاها.. انا بس اللي مش ناوي دلوقتي على الموضوع دا خالص.. كونّ نفسي الاول وبعدين ابدأ افكر في الحوار دا..

اطلق خالد بعض القفشات و النكات فأضحكنا مرة اخرى لعدة دقائق.. انتهي ضحكنا بصعوبة في تلك الجلسة.. اردفت بكل واقعية:

وحشتني اللمة دي يا ولاد والله..

استمرت نقاشاتنا حوالى الساعتين.. تناقشنا في كل ما يمكن ان يتخيله المرء كموضوع للنقاش.. تحدثنا عما حدث لكل منا خلال العشر سنوات التي فرقت بيننا.. و علموا بخبر وفاة جدي.. حزنوا كثيرًا لوفاته.. فقد كان يعاملهم جميعًا كأنهم احفاده مثلما كنت حفيده.. واسوني و اعتذروا عن عدم حضور العزاء.. حاولت تغيير دفة الحديث.. لم ارغب في التطرق لأي موضوع يحزنني في تلك الجلسة.. لم ارغب في الخروج من حالة النشوة التي اعيشها وسط اصدقائي الاعزاء.. وكأنني وصلت لحالة النيرفانا المطلقة التي يصل اليها كهنة البوذية..

تذكرت ما قرأته في مذكرات جدي.. فكرت في ان استشير شريف في موضوع السفر في الزمن.. فلقد كنت تائهًا بالفعل.. مشتتًا بين صعوبة تحقيق النظرية و ما كتبه جدي في تلك الاوراق من إثباتات لقدرته على صنع آلة الزمن.. اتجهت لشريف و سألته:

بقولك يا شريف.. ايه رأيك في حوار السفر في الزمن؟

قطب شريف جبينه كعادته عندما يركز في موضوع ما، و اجابني في هدوء:

السفر في الزمن.. اشمعني الموضوع دا يا ادهم؟

اجبته: يعني.. لقيت نقاشات على النت مكتوبة بخصوص الحوار دا.. وفيه ناس بتأكد انه ممكن يحصل.. لكن انا مش مصدق بصراحة

رد على بصوت هادئ: بص يا ادهم.. الموضوع دا معقد اغلب الناس بتقول فيه كلام كتير.. و محدش عارف الصح فين.. شوية يقولوا لو قدرنا نوصل لسرعه الضوء ساعتها نقدر نكسر حاجز الزمن و نقدر نسافر للماضي او للمستقبل.. و شوية يقولوا نقدر نسافر للمستقبل بس.. و شوية يقولوا منقدرش نسافر اساسًا و انسوا الموضوع.. محدش عارف يتوصل لحاجة في النظرية دي..

سأل يوسف و قد بدأت عصبيته في الظهور: انا مش فاهم حاجة.. يعني كده فيه سفر ولا مفيش؟

اجابه شريف: مانا قلت.. محدش عارف.. المشكلة ان النظرية دي ليها نظريات مضاده بتدمرها من الاساس.. يعني دلوقتي لو سافرت في الماضي عشر سنين فاتت.. هيبقي فيه نسختين مني.. نسخة حاليه و نسخة اللي لسه عيل صغير.. و دا نظريًا مينفعش ان نفس الكتلة تتواجد مرتين في بُعد واحد..

بدا الذهول مرتسمًا على وجه خالد.. رأيت ذلك فلم استطع كتمان ضحكتي.. لقد كان للذهول على وجه خالد البدين الطفولي تأثيرًا كوميديًا لا يوصف.. سألته ضاحكًا:

ايه يابني مالك؟ ايه الدهشة اللي انتا فيها دي؟

اجابني خالد في ذهول: بخلاف اني مش قادر افهم اوي كلامكم التقيل دا.. انا دلوقتي لو سافرت في الزمن.. اقدر احضر فرح ابويا و امي؟؟ يا لهوي يا جدعان!!

اخرجتنا جملته تلك من حالة الحوار العلمي التي انغمسنا فيها، حتى أن شريف نفسه بوقاره المعتاد لم يستطع كتم ضحكاته تلك المرة.. و اجابه بعدها بصعوبة:

كح كح.. يخرب بيت شيطانك يا خالد.. بس تصدق.. كلامك ينفع والله.. كان فيه فيلم اجنبي اتعمل منه تلات اجزاء اسمه العودة للمستقبل.. البطل فيه راح للماضي علشان يشوف والده و والدته في شبابهم.. بس هنا السؤال المهم.. هل لو لا قدر الله اتدخل في لقائهم.. و قدر يمنعهم من انهم يعرفوا بعض.. كده مش هيتولد اساسًا.. يبقي ازاي هيبقي موجود علشان يسافر في الماضي؟

ذكرتني جملته تلك بنفس المثال الذي طرحه السيد ديمتريف على جدي اثناء مناقشاتهم بالقبو السري.. عدت بإنتباهي لحديث شريف.. حيث مازال مستمرًا في طرح المشاكل التي تواجه موضوع السفر في الزمن..

اينشتاين اثبت ان كل ما الجسم سرعته بتزيد، الزمن بيتباطيء.. يعني لو احمد و ادهم اخوات توأم عندهم عشرين سنة مثلًا.. لو ادهم ركب صاروخ بيطير بسرعة الضوء وفضل في الصاروخ دا لمده سنه مثلًا.. وبعدين رجع علشان يقابل اخوه احمد.. هيلاقي ان احمد مات بالشيخوخة من زمان اساسًا.. و ادهم يبقي عمره زاد سنة بس.. و دا لإن الزمن بيتباطيء بزيادة السرعة.. يعني كل ما سرعتك بتزيد كل

ما الزمن بيمر ببطء لحد ما توصل لسرعة الضوء.. لو وصلت لسرعة الضوء الزمن بيقف ومبيتحركش بالنسبة لك.. فهمت حاجة؟

اجـاب خالـد بصـدق: لأ برضـه ثـم ضـحك عـاليا و قـد ارتـج جسده مـن تـأثير ضـحكاته تلـك.. ولكن الحـوار لـم يكـن قـد انتـهي فلـم يشـاركه اغلبنـا الضـحك ككـل مرة.. لقـد انتبـهنا لكلمـات شـريف تلـك المـرة.. كنت قـد بـدأت فـي فـهم مـا يقولـه شريف.. فسألته:

طب ليه ميكونش كل الكلام النظري دا كلام غلط علشان محدش جرب فعلًا؟ ليه ميكونش فيه حد قدر انه يعمل آلة الزمن ويسافر بيها للماضي او المستقبل؟

اجابني شريف: لأ هو من ناحية التجريب.. فيه ناس حاولت وجربت فعلًا.. عندك مثلًا العالم الامريكاني كيب ثورن من اشهر العلماء في الموضوع دا.. و ليه دراسات كتيرة بخصوص السفر في الزمن.. و ليه تصور خاص بآلة الزمن.. بأنه يخلق حاجة زي ممر تنقل اللي يدخله من زمن لزمن تاني.. و سماه بالممر الدودي.. ودا عن طريق تحطيم الذرة في المعمل في جهاز تعجيل للجسيمات.. و عن طريق نبضات معينه من الطاقة يقدر يتحكم في الممر دا و يشكله بشحنات كهربيه تحدد مدخل و مخرج الممر دا و بعد كده يكبره لحد ما يقدر يخلي انسان كامل يمر من الممر دا..

تحفزت حواسي عند سماعي لتلك الكلمات الاخيرة.. لقد كان وصفه مشابهًا كثيرًا لوصف تجربة السيد ديمتريف و من بعده جدي جمال رحمه الله.. إذن فالموضوع يمكن تحقيقه بالفعل!!

سألته بكل لهفة: طب و النتيجة كانت ايه؟

اجابني هازًا كتفيه: فضلت نظرية للاسف.. التجربة منجحتش اوي.. و العلماء اعتبروها خيال.. و عندك عالم كبير زي ستيفن هوكنج بكل نظرياته عن الثقوب السودا و نشأة الكون، قال ان السفر في الزمن ممكن يكون على المستوي الميكروسكوبي، لكنه استنكر انه ممكن يبقي فيه انحناء في الزمكان يسمح بنقل انسان كامل.. و انه احتمال الفكرة دي يساوي صفر..

قال يوسف بكل عصبية: خلاص يا جماعه فككوا من الموضوع دا.. كفاية الخيال العلمي اللي هيلحس دماغكو و تعالوا نلعب دور طاولة ولا دور شايب.. اعلنت جملته تلك نهاية حوارنا في موضوع السفر في الزمن.. لأظل أنا في حيرتي.. لم ارضِ تلهفي لمعرفة حقيقة تلك النظرية.. التفت بنظري لـاحمد فوجدته منشغلًا في الكتابة على هاتفه المحمول.. سألته:

يا تري بأه ايه اللي كان واخدك مننا واحنا بنتناقش في المواضيع المعقدة دي؟

قطع سؤالي تركيزه ليسألني بدهشة عما اقول.. قام خالد بسرعه مقارنةً بجسده البدين مختطفًا الهاتف من يد احمد بشكل طفولي.. نظر اليه لثوان ثم قهقه بصوت مرتفع كعادته.. و من وسط قهقهته استطعنا تمييز كلامه:

بأه دا اللي مستني يكون نفسه الاول.. هاهاهاهاها.. الباشا قاعد يكلملي بنات على النت.. ههاهاها.. شوفوا يا عالم.. الاستاذ اللي عامل نفسه عاقل و مش بيفكر في المواضيع دي.. هاهاهاهاهاها.. يا واد يا خلبوص.. طول عمرك حتفضل زير نساء.

عادت ضحكاتنا للوجود بصوت عالى مرة ثانية.. و اختطف احمد الهاتف من يد خالد في مرح متظاهرًا بضربه على كتفيه.. استمرت جلستنا حتى منتصف الليل ما بين التسامر و التضاحك ولعب الطاولة.. حتى انتبهنا اننا اصبحنا الوحيدين بالمقهي.. فقررنا الرحيل على وعد باللقاء مرة اخرى خلال ايام.. ودعتهم جميعًا بالقبلات و الاحضان بعد ان تبادلنا ارقام هواتفنا الجديده..

عدت الى المنزل و قد قتلني الارهاق و التعب.. اسرعت لمكتب جدي.. وجدت اوراقه كما كانت.. لكن ارهاقي منعني من مواصلة القراءة.. فعدت الى غرفة جدي و ارتميت على الفراش بملابسي كما أنا..

قبل ان اغرق في النوم.. ارتفع رنين هاتفي المحمول.. هرعت للرد في قلق.. وجدت رقم صبحي يرتسم على الشاشة.. ضغطت زر الرد فانبعث صوت صبحي من الهاتف قائلًا:

كده يابني.. نسيت اقولك ايه اللي حصل لي مع الدكتور عندنا في الكليه بسبب اثارك دي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12

ذكرتني جمله صبحي بالسبب الرئيسي لنزولي اليوم من المنزل.. ذلك السبب الذي انساني اياه لقاء اصدقائي القدامي.. فأجبته بلهفة:

- اه صحيح.. عملت ايه مع الدكتور زميلك دا؟

اجابني: أولًا هو رئيس القسم بتاعنا في الكلية.. مش زميلي.. ثانيًا انا كنت هروح القسم بسببك يا جدع..

سألته في نفاد صبر: خلصني يا صبحي.. حصل ايه المهم؟

رد قائلًا: ماشي.. رحت له و وريته الصور، بعد ما اتفرج عليهم كويس، قام اندهش اوي و زعق لي اني ازاي اسمح لنفسي إني اصور اثار مسروقة.. و كان ناقص يطلبلي شرطة الاثار يا عم.. و لما هديته و قولتله اني لقيت الصور دي على النت وسألته على معني كلامه.. قال لي ان الاثار اللي في الصور دي اصلية جدًا.. و خصوصًا الخوذة الحربية.. لأنها نادره جدًا ومن الحاجات القليلة اللي باقية من زمن الاسرة البطلمية.. و بالتحديد دي كانت الخوذة الحربية اللي بيرتديها الجنود البحارة في معركة اكتيوم البحرية سنه 31 قبل الميلاد..

سألته: طب و الوسام العسكري دا؟ مقالش تبع ايه؟

اجابني: دا بأه وسام حربي من زمن هتلر.. كان بيلبسه جنود الحراسة الخاصة في فترة الربع الاول من القرن العشرين، بس المشكلة ان الوسام دا مينفعش يتجاب من مصر.. لأنه مش من ضمن الاوسمة والنياشين الخاصة بالضباط اللي نزلوا مصر في الحرب العالمية التانية.. يعني الوسام دا متجاب من المانيا نفسها..

صمت قليلًا ثم اكمل:

بس في النهاية الدكتور اصرّ على ان القطع دي ممكن متقلده مادامت متجابه من النت.. يقصد انها مش مضمون اصلها و ممكن تكون متزورة بعناية.. علشان كده انا بقترح اننا نجيب له القطع نفسها فعلًا.. ايه رأيك؟

اجبته في سرعه: لأ.. انسي الفكرة دي خالص يا صبحي.. خلاص انا هشوف الموضوع دا بنفسي.. شكرًا ليك تعبتك معايا في الحوار دا واغلقت الهاتف بعدها منعًا لإستدراكات صبحي اللانهائية..

زادت كلمات صبحي من حيرتي.. ذلك الدكتور يؤكد صحة تلك القطع الاثرية.. و إن ساورته بعض الشكوك.. والمشكلة الاكبر في الازمنة التي تنتمي اليها كلتا القطعتين.. احدهما من قبل الميلاد والاخرى منذ حوالى قرن كامل.. لم يجل ببالى إلا فكرة واحدة.. ما كتبه جدي صحيح مائة بالمائة.. و لكن كيف؟!

كل من حولي و كل ما سمعته و قرأته من تصفحي و قراءاتي، اثبت خطأ نظرية السفر في الزمن.. و الجميع يشرح وجهه نظره بعديد من الدلائل المؤكدة و المقنعه

بالفعل، و بينما تتواجد كل تلك النظريات في كفة الميزان، تقبع كلمات جدي الحبيب في الكفة الاخرى.. تلك الاوراق تثبت وجود تلك النظرية و نجاحها.. ولكن كيف لم انتبه لذلك؟؟ ما قرأته حتى الآن يشرح كيفية عمل الآلة و استخدامها كوسيلة نقل في المكان.. ما الدليل على نجاح الآلة و وصولها لمستويات اخرى؟ لماذا اسبق الاحداث دائمًا؟؟ سأعود غدًا في الصباح لقراءة ما كتبه جدي في تلك الاوراق.. علها تأتي بالخبر اليقين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظت في اليوم التالي، و ارهاق الامس واضحًا على وجهي.. استحممت بسرعه و خرجت لإحضار افطاري.. عدت الى المنزل وبدأت في اعداد وجبه الافطار الشهية.. كعادتي في الطهي، افسدت كمية كبيرة من مستلزمات الافطار، و استطعت انقاذ ما تبقي لتصير بعض اللقيمات هي وجبة افطاري الرائعه..

انتهيت من اعداد جرعتي اليومية من مشروب النسكافيه الدافئ، و خرجت الى الشرفة لأول مرة منذ ان اتيت لبيت جدي.. اثارني دفء اشعه الشمس الذهبية عند ملامستها لبشره يدي.. و اقنعتني بقضاء صباحي في تلك الشرفة متأملًا الشارع من حولي و مراقبًا للمارة و هيئاتهم المتباينة.. تُري فيما يفكرون؟ هل يحلمون بغد أفضل ام انتابهم اليأس كأغلب من حولهم؟ و هل تمني ولو واحد منهم، ان يغير ماضيه او مستقبله؟ و إذا امتلكوا الوسيلة لذلك.. هل يجرأ المرء ان يفعلها؟

هل؟

شردت في افكاري تلك، لأجد كوب النسكافيه قد فقد سخونته تمامًا، و أني مازلت واقفًا شاردًا كما أنا.. تأففت و ذهبت لإعداد كوبًا اخر من النسكافية.. و لكن تلك المرة لن اشرد.. فتلك المرة سأقرأ مذكرات جدي.. لأكمل تلك الرحلة العجيبة التي صرت فيها مسافرًا بغير إرادتي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

امسكت بالأوراق و عدت لقرائتها مستكملًا تلك الفقرة اللي قاطعني فيها صبحي بمكالمته..

كل من يشكك بنظرياته في موضوع السفر في الزمكان.. اعتمد في كلامه على النظرية فقط.. لم يحاول تجربة تلك النظرية على ارض الواقع.. العلماء يتفلسفون احيانًا.. بينما هم اجدر الناس بالتجربة، وها نحن على ارض الواقع نثبت انه يمكننا ذلك إذا جربنا و استمررنا في تجاربنا حتى نصل..

منحتني جملته تلك الدفعه المعنوية اللازمة لإكمال ابحاثنا في تلك التجربة.. حتى حدث ما حدث و انتهي كل شئ.. و لكنني الآن بما وصلت له من تقدم.. قادر على صنع الفرق.. قادر على الوصول لأبعد مما وصل له السيد ديمتريف.. يا له من شرف.. وو يا له من فخر!!

انتهي اسبوع الراحة، و عدت لتجاربي مرة اخرى، و لكن تلك المرة عدت مسلحًا بالأمل، و الحماس الذي تدفق في عروقي فحلّ محل الدماء..

بعد ان نجحت تجربتي السابقة في نقل الورقة من موضع لآخر.. جربت ان اطور تجربتي.. سأجرب نقل كائنًا عضويًا تلك المرة.. هرعت للشرفة و اخترت اصيصًا فخاريًا يحمل في قلبه نبته خضراء غضة.. بعد ان قمت بدراساتي و تأكدت من صحة المعادلات الخاصة بالتجربه.. حان وقت البيان العملي..

وضعت الاصيص امام الالة، و قمت بزيادة معدل الطاقة المستخدم في التجربة، و ذلك بسبب الكتلة الكبيرة نسبيًا للجسم تلك المرة.. بدأت التجربة بالضغط على الزر.. هدرت الالة قليلًا و هرعت للجهة المقابلة.. كالمرة السابقة، بدأ الاصيص في التكون ببطء.. استلزم الامر وقتًا اطول قليلًا من سابقتها.. لكن في النهاية انتقل الاصيص كاملًا بالنبات و الطين المغمور داخله.. كانت تجربه ناجحة بكل المقاييس.. الجسم انتقل بالرغم من تعدد مكوناته.. والادهي من ذلك ان التجربه نجحت في حيز من الفراغ ليس بالقليل و في فترة مقبولة قليلًا.. هرعت لدفتر ملاحظاتي لأدون بيانات تلك التجربه الناجحة.. و بمجرد ان قمت بفتح الدفتر، انتابني الهلع عند سماع ذلك الصوت فجأه..

كرااااش..

نظرت بخوف للاصيص لأجد ما لم اتوقعه، لقد تشقق الاصيص حتى تهشم لقطع صغيرة.. و تناثرت اجزاء من الطين فوق مائده التجارب بينما قبعت النبته متمسكة بجزء كبير من الطين ظل ثابتًا فوق المائده..

دلّ ذلك على اخطاء جسيمة في التجربة لن اسمح بتكرارها فيما بعد.. عدت لبحث معادلاتي و قوانين النظرية، و ظلّ ذلك الامر كالهاجس الملازم لي طوال يقظتي و نومي، حتى توصلت اخيرًا لحل فعّال استطاع زياده معدلات الامان في تلك التجربه، بتقوية دعائم نظام نقل الجزيئات و التأكد من ترابط التسلسل الرمزي لها.. مع زياده نسبية في معدل الطاقة..

عدت بعد ذلك لتجربه الوضع الجديد، و بعد جهد جهيد.. نجحت التجربة بالفعل، و بدون اي اثار جانبيه تؤثر على الجسم المنقول..

شجعني نجاح التجربة الثانية بعد تكرارها و تعلمي من اخطائي وتداركها.. أن ارتقي لمستوي اعلى من الطموح العلمي.. لذلك قمت مدفوعًا بمزيد من الجشع العلمي إذا صح التعبير.. و قررت ان اجرب نقل كائنًا حيًا متحركًا تلك المرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ارتديت ملابسي استعدادًا للنزول لشراء احد فئران التجارب العلمية من احدي اماكن بيع الحيوانات الاليفة القريبة من منزلي.. وعند وصولي هناك وجدت ذلك الدكان مغلقًا.. لعنت سوء حظي.. و ظللت ابحث و ابحث عن اي محلٍ متخصصٍ في بيع الحيوانات.. ولكن باءت محاولاتي بالفشل..

عدت للبيت مرة اخرى اجر اذيال الخيبة.. و قررت ان اخلد للنوم على ان اعيد تلك التجربة غدًا آملًا ان يوفقني الله و اجد ما اريد..

خلعت ملابسي و ارتديت بدلًا منها ملابس النوم.. و فور رقودي على الفراش.. رأيته!!

اقترب مني بشاربه الطويل، و يداه تتحرك في سرعه و خفه.. برقت عيني في فرحة.. لم يخيب الله املي تمامًا..

هرعت لمكتبي و احضرت احدي علب الورق المقوي الصغيرة و المستخدمة في تخزين الادوات المعملية.. عدت لغرفتي لأجده ثابتًا كما هو.. اقتربت من موضعه على الجدار في بطء محاولًا عدم استثارته.. ثم بسرعه قمت بتغطيته بتلك العلبة الورقية.. لقد امسكتك ايها الصرصور!!

عدت بسرعه لمكتبي، و تأكدت من وجود ذلك الصرصور بداخل العلبة.. هاقد اتي الكائن الحي المتحرك الى بنفسه.. لم اضيع الوقت، و بدأت اعداد الآلة جيدًا.. لم اقم بزيادة الطاقة كثيرًا تلك المرة، فالحجم الصغير نسبيًا للصرصور لم يستلزم كمية كبيرة من الطاقة، و لكني تأكدت من وجود كمية كافية لنقل الصرصور بصورة صحيحة و ان تنتقل جزيئاته و خلاياه جيدًا حتى اتلافي اي مشكلة جانبيه تعطل مسيرتي في التجربة..

هدرت الآلة كعادتها في كل مرة، ثم توقفت بعد نقلها للعلبة، نظرت لموضع العلبة بعد انتقالها.. لقد فعلتها تلك المرة ايضًا.. لقد نجحت.. لم اتعجل الفرحة.. ذهبت لفتح العلبة للتأكد من نجاحي التام.. و بمجرد ان فتحتها.. تسلل منها الصرصور هاربًا في سرعه وزاحفًا من العلبة للمائده الى الارض ثم الى حريته.. وقتها لم اتمكن من كتم ضحكاتي.. لقد هرب الصرصور.. و لكنه استحق حريته بجدارة.. فليهرب كما يشاء.. لقد نجحت تجربتي تمامًا.. فهنيئًا لي بما فعلت.. و هنيئًا له بما فعل!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد حادثة الصرصور تلك.. تسارع معدل نجاحي في تلك التجربة، فأنا الآن قادر على نقل جسم، أيًا كانت حالته العضوية او تكوينه الجزيئي من موضع لموضع اخر بعيد عنه.. و كل ما ينقصني هو تحويل ذلك النقل في الفراغ الى نقل في الزمكان.. و ان يتحول حجم ذلك الجسم المنقول لحجم انسان بالغ..

لمده سنه كاملة.. استغرقت في معادلاتي و تجاربي التي لازمني فيها النجاح حينًا و الفشل احيانًا اخرى كثيرة.. و لكنني في نهاية تلك السنة كنت قد وصلت بمعدلاتي التي استنتجتها من تجاربي السابقة انني قد اتمكن بالفعل من الوصول للمرحلة الاخيرة و الحاسمة من تجاربي.. استطعت ان انتهي من صنع الآلة التي ستنقل الانسان لماضيه مستعملًا الانفاق الدودية في الزمكان..

اذا تخيلنا سطح ارضنا ينقسم لشبكة هندسية ممتده تحتوي كوكب الارض بأكمله داخلها، فإن تلك الشبكة ستقسم سطح الكوكب لقطاعات متماثلة قد تصل لملايين القطاعات.. شيئًا اقرب للذهن لشكل خطوط الطول و دوائر العرض التي طالما

درسناها في المدرسة في طفولتنا.. و لكن تلك القطاعات ضيقة للغاية و لا تتمتع بالمساحات الممتده التي تتمتع بها القطاعات الناتجه من تقابل الخطوط و الدوائر الاخرى..

و كل قطاع من تلك القطاعات يحتوي بداخله فراغًا يمكن استعماله لتوليد ممرًا - او ثقبًا - دوديًا، ذلك الممر يمتاز عن اقرانه من الممرات الاخرى بتردد معين يتغير حسب مكانه في شبكة القطاعات و في مجري الزمن، و ذلك التردد إذا استطعت التوصل اليه سيمكنني عندها استعمال ذلك الممر للتنقل في الماضي كما أردت..

قمت ببناء باقي نظريتي على تلك الاطروحة التي وجدت بدايتها في اوراق السيد ديمتريف.. رحمه الله عليك يا سيدي، فعبقريتك العلمية تنير لي طريقي الآن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد شهور من مطالعه الكتب العلمية، و بحث سبل الوصول لحل معادلات تردد تلك الممرات.. استطعت ان اتوصل لقاعده اساسية تمكنني من استنتاج المعادلات اللازمة لفتح بوابة الممر ثم استعماله بعد ذلك..

و ترتبت عده نتائج على تلك القاعده فكانت مثلًا:

النتيجة الاولي: كل ممر يغطي قطاعًا ما من سطح الارض تبلغ مساحته حوالى كيلو مترًا واحدًا مربعًا.. و بفرض مساحة سطح كوكب الارض ما يقارب ال510 مليون كم مربع.. إذن العدد الاجمالى للممرات الدودية ما يقارب ال510 مليون ممر.. عددًا مهولًا و لكن يمكن اختصار جزءًا كبيرًا منه.. حيث تبلغ مساحة الماء من سطح كوكبنا ما يقرب من 70.9% من مساحة سطح الكوكب.. اي المتبقي حوالى 29.1% من السطح تنتشر به اليابسه.. او ما يقرب 138 مليون ممرًا.. لازال العدد مهولًا.. ولكنه ناتج هام لتلك المعادلات..

النتيجة الثانية: توصلت لها ببعض المعادلات الرياضية، بفرض اعطاء عدد مسلسل لكل ممر، فإن التردد النهائي للممر يتحكم فيه ذلك العدد المسلسل و يتحكم فيه موضعه ايضًا في المكان والزمان.. لينتج في النهاية ترددًا يتم حساب رقمه من اربعة عشر عددًا هو الرقم الدال على تردد ذلك الممر..

النتيجة الثالثة: يقوم الممر بفتح طريقًا للتواصل بين موضع في الحاضر و موضع ما في الماضي.. و ذلك عن طريق معرفة تردد ذلك الموضع المراد السفر اليه.. و ينتج عن ذلك نتيجة هامة جدًا.. أنه يستحيل السفر لموضع في المستقبل، لصعوبة إيجاد شئ لم يوجد بعد..

بعد وضعي لتلك النتائج، احسست بتفاؤل غير عادي.. فها انا اضع القواعد التي سأبني عليها تجربتي العظمي و التي ستنقل البشرية لآفاق لم تستطع تخيلها العقول المظلمة لبعض العلماء..

وبعد شهرين من البحث و التقصي في صحة تلك النتائج، جاءت لحظة الحقيقة.. ها انا اقف في غرفة مكتبي، و امسك بين راحتى آلة النقل و قد ربطتها الى جسدي

حتى لا تنفصل عني ولو لوهلة بسيطة.. اعددت تجربتي جيدًا، و كتبت في ورقة على سطح مكتبي اوضح فيها ما فعلت، ليعلم الناس قصتي في حالة فشل التجربة وضياعي في مجري الزمن او تفتت جزيئاتي و تحولي لغبار كوني..

قمت بشحن الآلة جيدًا لعده ايام.. فبرغم توصلي لحل ببعض معادلاتي يمكنني من توفير قدرًا كبيرًا من الطاقة و لكن تلك المرة سأحتاج كمًا من الطاقة كافيًا لإنارة مبني سكني كامل لعده ايام.. تأكدت من شحن الآلة و ضغطت بأصابعي ارقام تردد الممر على لوحة الجهاز.. قررت مسبقًا موضع أول رحلةٍ لي.. و اقتنعت بضرورة السفر لذلك الموضع اولًا.. و بأيدي مرتعشة.. ضغطت على زر البدء..

تذبذبت صورة الغرفة امامي.. و بدأت دائرة من الضوء المشع في التكون وسط الغرفة.. سرعان ما تحولت لقمع ممتد ف الفراغ امامي.. كان المشهد مهولًا و يختلف عما حدث من قبل.. لن استطع وصفه ما حييت.. مشهدًا غريبًا و رائعا في نفس الوقت.. ترددت لحظة و انتابني الخوف من الفشل.. و لكني اتخذت قرارًا منذ بداية تلك الفكرة الا اخاف.. سأقتحم الزمن مادمت قد وصلت لتلك المرحلة.. خطوت اولي خطواتي بإتجاه الثقب.. و ما ان لامسته حتى شعرت بقوة هائلة تسحبني لداخل الثقب.. اتبعها شعور ساحق بالانضغاط.. اعتقد اني فقدت الوعي لثوان.. فقد استفقت على بقعه من النور تتجه نحوي بسرعه شديدة.. كلا.. انا الذي اتجه اليها بتلك السرعة الرهيبة.. و فجأة انتهي كل ذلك في لحظة.. لأجد نفسي في تلك الارض الاخرى و ذلك الزمان الاخر الذي يسبق حاضري بعشرات السنين.. لقد سافرت في الزمان و المكان بالفعل!!

13

انتابتني حالة عنيفة من الدوار و الغثيان، يبدو أن السفر في الزمن لن يكون هينًا.. و حينها علمت شعور الصرصور عندما انتقل خلال آلتي.. حاولت ان اتماسك قليلًا، فما سأفعله بعد قليل سيستلزم مني كثيرًا من الجهد.. هدأت ضربات قلبي بعد دقائق معدودة ليستكين بعدها جسدي و ابدأ في مهمتي التي اتيت لهذا الزمان و المكان من اجل تنفيذها.. رمقت الكلمات المكتوبة على ذلك الباب الخشبي الذي اقف امامه بكل رهبة و قلق.. ها انا اقف الآن امام باب المكتب الخاص بعميد كليه علوم الفيزياء بجامعه موسكو الحكومية.. السيد جريجوري ديمتريف..

نعم.. لقد كان ذلك اختياري الخاص لأول رحلة لي عبر الزمكان.. ما كان يجب ان ابدأ اي رحلة اخرى قبل القيام بتلك الرحلة الهامة.. فقد يتوقف مصيري شخصيًا على تلك الرحلة.. اتجهت الى الباب و طرقته طرقتين خفيفتين.. شعرت بجلبه مكتومة خلف الباب، ثم سمعت صوته.. رباه.. سيل من الذكريات ينهال على عقلي بمجرد سماع ذلك الصوت الاثير الى نفسي.. انفتح الباب لأجده امامي.. كما تركته منذ اخر مرة.. وقف امامي بكل قلق لثوان.. ثم بدأ الذهول في وضع بصمته على محيا السيد ديمتريف.. اتسعت عيناه في دهشة.. ثم قالها... جمال!!

هرعت اليه و احتضنته في شوق، بينما تغالب دموعي نفسي، في البدء لم يبد السيد ديمتريف اي ردة فعل، ثم بدأت يداه في لمس كتفي و مبادلتي العناق..

اجلسته على مكتبه في سرعه.. و بدأت الحديث..

سيدي.. كم اشتقت اليك.. لابد و انك قد فهمت ما حدث.. لقد جئتك من مستقبلك.. جئتك من اواخر القرن العشرين.. لقد نجحت تجربتك بالفعل يا سيدي!!

مازال السيد ديمتريف على نفس حالته من الذهول، و لكن بعد ثوان بدأ في تمالك نفسه.. ليجيبني بصوت مبحوح.. كيف؟؟ كيف يا ولدي؟ ثم استدرك قائلًا: و لماذا اتيت الى هنا بالذات؟

اجبته في سرعه: اولًا يجب علينا الاسراع في تنفيذ ما اتيت من اجله، فكلانا وقتنا محدود للغاية.. بعد قليل ستأتي قوة من رجال المخابرات السوفيتية لإلقاء القبض عليك و بحوزتك النموذج التجريبي لآلة النقل، و بعض الاوراق العلمية الخاصة بالتجربة.. لذلك يجب عليك ان تأتي معي لزمني حالًا لأنقذك من قبضة هولاء الوحوش المفترسة

رد السيد ديمتريف في خوف: المخابرات!! لا.. لن اسمح لهم بالحصول على الآلة.. و لا يمكن ان آتي معك يا جمال.. انت تعلم القواعد.. لا يمكن تغيير الماضي.. هذا كفيل بتحويل مجري الزمن و قد يحدث ما لا يحمد عقباه..

انفعلت قائلًا: و انا لن اسمح لهم بالحصول عليك او على الآلة.. لا يوجد حل اخر!

اجابني وقد بدأت دمعه في الانحدار على وجنته: لن يحصلوا عليها.. سنجد الحل

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استطعت ان اعود الى زمننا مرة اخرى بنجاح.. و بمجرد ان عدت الى غرفة معملي، ارتميت على مقعدي الخشبي بكل ارهاق.. ثم بدأت في البكاء...

وضعت نموذج آلة السيد ديمتريف على المكتب امامي، مستعيدًا احداث مرت منذ دقائق.. او من المفترض منذ سنين عديده.. لم استطع ان اجزم موعدها.. و لكنها حدثت بالفعل، دُونت في سجل الزمن بمجرد عودتي لتلك الفترة من حياتي البائسة..

إنقاذ الآلة عند السيد ديمتريف كان اكثر اهمية من إنقاذ نفسه.. حياتي الفانية اقدمها فداءًا لتلك الآلة.. لا احد يجب أن يصل اليها يا جمال.. لا احد، قالها و عيناه تلتمع بالدموع ليتجه الى و يعانقني عناقًا حارًا، ثم اعطاني الآلة و بصوت يشوبه التأثر.. قالها.. افتدي الآلة بحياتك، واستعملها في الخير دائمًا، و ابدًا.. لا تحاول تغيير الماضي يا ولدي العزيز.. ثم هرع الى مكتبه ليبدأ في التخلص من اوراق التجربه قبل ان يصل اليه رجال المخابرات.. وقفت في منتصف الحجرة، وامسكت بآلتي بيدي اليمني بينما يقبع نموذج السيد ديمتريف في قبضتي اليسري.. بدأت ضبط اعدادت الآلة لإعادتي لحاضري بواسطة نفس الممر الدودي المتاح لساعات قليلة، هي الفترة الزمنية الناتجه عن قدرة الآلة على تخزين الطاقة بداخلها.. و قبل ان اضغط زر النقل، نظر الى السيد ديمتريف وقد ارتسمت نظرة ارتياح على وجهه.. و أردف:

حفظك الرب يا ولدي.. و سلامي لكاترينا و زينب..

قبل ان اجيبه.. لمحت بطرف عيني تحركات رجال المخابرات من النافذة الزجاجية الصغيرة المطلة على ساحة الكليه.. اخبرته في رعب: لقد أتوا!! فصرخ السيد ديمتريف بأن انتقل بسرعه قبل وصولهم..

ضغطت الزر و انا اسابق الزمن للسفر قبل ان يأتي رجال المخابرات، بدأ الممر في التكون بالفعل، و لم انتظر كثيرًا.. اخترقت الممر و بدأت في الانتقال، و كان اخر ما سمعته طرقات عنيفه على باب المكتب و شهقة ذعر من السيد ديمتريف... يا إلهي.. انه يحدث بالفعل..

و ها أنا اجلس على مقعدي الخاص بغرفة المعمل المقام بمنزلي القديم.. مازلت في دهشة من أمري.. هل استطعت بالفعل ان اعود للماضي، و هل ما قمت به انقذ الآلة بالفعل من الوقوع في أيدي المخابرات السوفيتية ام انهم استطاعوا بوسيلة ما معرفة نتيجة تلك التجارب التي قمت بها مع السيد ديمتريف؟؟

امتلأ عقلي بالاسئلة، فاضطررت للجوء الى فراشي،،، لعله يحمل الجواب او الراحه.. ايهما اقرب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتهيت من قراءة تلك الورقة، ثم وضعتها بجانب ما قرأته من مذكرات جدي الراحل.. عقلي ممتلئ بالأسئلة انا ايضًا.. ما هذا الذي اقرأه؟؟ هل بإمكان اي انسان

تصديق ذلك الكلام المدون بتلك المذكرات؟ ما حسبته ضربًا من الخيال العلمي وقصص الاطفال، هاهو حقيقي.. و جدي هو من يخبرني بذلك، و الذي عهدته طوال عمره مثالًا للدقة و الالتزام.. هل تلك الورقات سردًا لمغامرة لم تحدث من قبل لبشري؟ ام هي مجرد كلمات لعجوز مصاب بالشيخوخة؟

انزعجت من ذلك الخاطر الاخير، فلم استطع تخيل جدي، العالم القدير و الانسان المثقف الواعي، و قد صار يعاني خرف الشيخوخة و عناءها.. كلا.. إن جدي على حق، و سأظل دائمًا محتفظًا بتلك الفكرة في ثنايا عقلي.. لن أسمح لبعض الخواطر ان تقلق راحتي..

إن تصديقي لكلمات جدي لهو دليل على اقتناعي بفكرة السفر في الزمن.. و هذا ما ينكره العالم اجمع.. ولكن كما قال السيد ديمتريف.. من ينكر تلك الفكرة، لم يستطع اثبات خطأها بالتجربة، و هو ما يسمح بوجود هامش بسيط لصواب الفكرة و قدرتنا على تحويلها من خيال لواقع ملموس..

تملكتني الحيرة، فلم أجد حلًا لذلك إلا باستكمال القراءة.. ربما بذلك يمكنني اثبات صحة اعتقاداتي و تهدئة عقلي الذي لا يرغب في الهدوء او الاستكانه..

امسكت بالورقة التالية.. و بدأت في التهام الكلمات المدونة على سطحها بخط جدي المنمق كعادته..

بعد ان عدت من تلك الرحلة الزمنية الشاقة بدنيًا ونفسيًا.. استلزمني الامر عده ايام من الراحة، لم اقرب فيها معملي، و لم افكر فيما سأفعله في الخطوات القادمة.. لأول مرة في حياتي لأ ادرس او احضّر لما انوي فعله في المرحلة المقبلة.. انتابتني حالة من العشوائية.. خرجت من جوانب المنزل لأسير هائمًا على وجهي لا ادري لأين تأخذني اقدامي.. حتى وجدت نفسي عندها.. استند بيدي على الجانب الحجري لضريح زوجتي الغالية كاترينا و بجانبها ترقد ابنتي الحبيبه زينب رحمهما الله...

انهمرت دموعي بشدة و قرأت لهما الفاتحه، ثم افترشت الارض بجانب الحائط، لأغرق في نوم عميق، رأيت فيه كاترينا و زينب مرتديتا اردية بيضاء.. و قد ارتسم على وجوههم تعابير السلام و الهدوء.. شعرت كما لو أني في الجنه.. وامامي تقف حوريات عدن بجمالهن الذي يفتن الالباب..

افاقتني يد خشنه لرجل في الخمسينيات من عمره يسألني عن سبب تواجدي هنا في ذلك الوقت.. لم أجيبه و قمت مسرعًا و رحلت عن ذلك المكان بينما يضرب ذلك الرجل كفًا بكف مبديًا استغرابه الشديد من هولاء المجاذيب الذين يراهم مرارًا و تكرارًا..

عدت الى منزلي و قد انتابني هدوء عجيب، و كأن ذلك الحلم الجميل قد انزل على قلبي السكينة و على عقلي الهدوء و راحه البال و قلة التفكير.. قضيت ليلتي ذلك اليوم في مشاهده ألبوم صور عائلتي الراحلة.. شاهدت صور لـ كاترينا معي امام منزلنا بموسكو.. و اثناء تجولنا في مناطق تاريخية و اثرية عديده

بروسيا.. ثم صورنا معًا بمصر، و ارتدائها للزي المصري التقليدي و تحولها من انسه روسية لربة منزل مصرية تجيد عمل الملوخية و طبق الفول المدمس بالزيت الحار.. ارتسمت البسمة على شفتي لمرات عديده اثناء مشاهدتي لتلك الصور المصحوبة بأجمل ذكريات حياتي، و كم انهمرت الدموع بعدها.. أذّن الفجر اثناء انهماكي في تقليب تلك الذكريات.. فقمت لأداء الصلاة.. و بعد ان انتهيت منها.. تخمرت فكرة بداخلي ملكت عقلي لساعات و ايام.. لتنتهي بي واقفًا في المعمل ممسكًا بآلة النقل.. سأعود للماضي مرة اخرى!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تلك المرة قررت موعد رحلتي.. لم استطع كتمان لهفتي و اشتياقي الى رؤيتهما مرة اخرى.. سأعود ليوم زفاف زينب.. اجمل ايامي السعيده في حياتي السابقة..

قمت بضبط الآلة لتنقلني لذلك اليوم، و على مسافة بعيده قليلًا من مكان الزفاف ليتسني لي الاختباء و التواري بعيدًا عن اعين الناس.. لم استطع المجازفة بأن يري احد نسختين مني.. فهذا كفيل بقلب الامور رأسًا على عقب..

انتقلت للماضي، و ساورتني نفس الاحاسيس التي مررت بها المرة السابقة، ولكني استطعت تجاوزها ايضًا.. لا مشكلة.. يمكنني التغلب على ذلك الدوار.. استندت على الجدار بجانبي.. و بدأت في السير بخطوات هادئة و قد ارخيت قبعتي التي ارتديتها خصيصًا لإخفاء ملامحي عن اعين المارة..

انا الآن في عام 1982.. ذلك العام الذي رفع فيه مبارك علم مصر فوق شبه جزيرة سيناء بعد استردادها كاملةً من المحتل الصهيوني.. ليحتلها الفساد و ينشر سيطرته على رقعه مصر بأكملها.. ذلك العام الذي حدثت به مجزرة حماة البشعه على الاراضي اللبنانية الجميلة.. ذلك العام الذي فازت به الجزائر على منتخب ألمانيا الغربية في مونديال كاس العالم لكرة القدم.. ذلك العام الذي تزوجت به ابنتي زينب رحمها الله..

نظرت في شاشة الآلة لأجد ان وقتي قد نفذ منه عديد من الدقائق، و ان ما تبقي لا يزيد عن دقائق معدودات فهرعت بأكثر ما يمكنني.. لاحت قاعه الفرح على بعد.. اسرعت اكثر و اكثر لأستطيع ان اراهم قبل ان انتقل.. انظر في الشاشة.. الوقت ينفد.. باق حوالى دقيقتين.. اقترب كثيرًا من القاعه.. اري موكب الزفة يتحرك.. احاول تغيير موضعي لأري كاترينا و زينب بوضوح.. و لكن اجسام المدعوين تمنعني عنهم.. كم رغبت ان اخترق الصفوف لألمسهم فقط مرة اخرى.. و لكن لا يمكن.. وقتها سيجدوني واقفًا امامهم و نسخة مني ايضًا واقفة بجانبهم تحتضن كفيهم..

لقد فكرت كثيرًا ان احاول إلغاء الزواج برمته.. ربما بذلك لن تتوفي زينب اثناء ولادتك يا ادهم.. فتظل هي معي لترعاني بدلًا من حياتي وحيدًا.. ثم طردت تلك الافكار السوداء عن عقلي.. الماضي لا يمكن تغييره و لا يمكن التدخل في اقدار

البشر، فمهما فعلت لن يمكنني منع ابنتي من ان يقبض ملاك الموت روحها في موعدها..

مازلت لا اري كاترينا او زينب بسبب الزحام الشديد حولهم.. كنت ابعد عنهم ما يقرب من مائة متر.. اري اجزاء منهم و اري تحركاتهم، ولكن لم اري وجوههم بوضوح حتى الآن.. تركت الحائط الذي اختبأت بجانبه، و مررت بعرض الشارع لأقترب ولو لقليل من الثواني قبل ان اضطر لتشغيل آلة النقل و العوده للحاضر الكئيب مرة اخرى..

اثناء مروري الشارع، و بينما يغطي ضجيج الفرح على اي صوت اخر.. فوجئت بتلك السيارة المندفعه بقوة تجاهي.. لتصدمني بعنف و تلقي بي امتارًا عديده على جانب الطريق.. شعرت بكسر في ساقي و ان وعيي قد قارب على الانتهاء.. اسرعت بكل ما استطع من قوة ان اضغط على زر النقل.. و جررت جسدي بصعوبة تجاه الثقب الدودي.. و تركت قوة جذبه تسحبني بداخله لتعيدني للحاضر قبل ان اجذب اي نوع من الانتباه في موضعي السابق..

انتقلت لمعملي مرة اخرى، غارقًا في دمائي و وعيي قد اوشك بالفعل على الذهاب بعيدًا عني، لأسقط على وجهي و دمي يروي ارضية المعمل..

دامت فترة فقداني للوعي لساعات عديده نزفت فيها الكثير و الكثير من الدماء.. بمجرد عودة وعيي لي.. اسرعت زاحفًا تجاه الهاتف، استنجدت بصديقي المقرب عبد الله.. و طلبت منه احضار طبيب بسرعه لعلاج ساقي المكسورة..

استطاع عبد الله بالفعل ان يصل الى منزلي.. وصلت لباب المنزل بعد جهد شديد، ليفاجأ عبد الله بحالتي، و ينقلني لمشفي قريب من بيتي.. و بعد ان وضع الطبيب ساقي في الجبس.. ظللت حبيسًا لمنزلي لعده اسابيع.. تلك الاسابيع ظللت اجتر فيها حزني و اشتياقي لزوجتي و ابنتي.. اطالع صورهم و اتذكر ضحكاتهم و كلماتهم.. بعد انتهاء تلك المرحلة اتخذت قراري النهائي.. لن اعود لماضي الخاص مرة اخرى.. لن استطع احتمال صدمة اخرى.. يكفي ضياع فرصة رؤيتي لزفاف ابنتي مرة اخرى.. فهذا ما اكتشفته بعد محاولتي العوده لذلك الممر مرة اخرى.. لأجده مستعصيًا على المرور.. الآلة تلغي الفترة الزمنية التي انتقلت اليها من خلال كل ممر قمت بفتحه من قبل.. و فرصتي الوحيده هي الممر السابق او التالي.. اي وفقًا لحساباتي، قبل تلك الفترة بثلاثة ايام او بعدها بثلاثة ايام.. لقد ضاعت على فرصتي.. و لن اقبل بضياع اي فرص اخرى..

الغريب والمدهش أن ذاكرتي الآن تحمل وقوع حادثة تصادم سيارة بجانب قاعه الزفاف يوم أن زُفت ابنتي، أي أن التغيير الذي احدثته في الماضي حمل اثاره للحاضر بالفعل.. تذكرت تحذير السيد ديمتريف بعدم المخاطرة بتغيير أي حدث ولو قليل في الماضي.. حتى لا يلقي بظلاله على الحاضر..

لقد صارت فكرة السفر عبر الزمن حقيقة لا جدال فيها بالنسبة لي.. و منذ الآن قررت أن اكتب مذكراتي لك يا ادهم.. فمذكراتي تلك وسيلة اخرى من وسائل السفر

في الزمن.. سأخبرك يا بني بما سأفعله.. لتعلم أي سر خبأه جدك لسنوات عديده.. و ليصل اليك سري في وقت سأكون ميتًا عاجزًا فيه عن البوح لك به..

اغرورقت عيناي بالدموع بعد قرائتي لتلك الصفحات.. زالت عني أي شكوك في صحة كلام جدي، و حتى إن كان مخرفًا قد نال منه الهرم و العجز.. لا يمكنني التشكيك في كلماته الآن.. يا إلهي.. كم عانيت يا جدي.. ها قد انتهيت من بعض الاوراق و مازال العديد و العديد من الاوراق قابعًا في ذلك الصندوق الخشبي.. تري ماذا رأيت و ماذا علمت؟ كيف حاورك الزمان؟ و ماذا اخبرك في تلك الحوارات؟ ان كلماتك لم تكشف لي سرًا واحدًا فحسب.. بل إنها فتحت عيناي لأري اسرارًا مختبئةً ظلت مدفونة في ذلك الصندوق لسنوات مرت.. يعلم الله هل كنت سأراها ام اظل في غفلتي عنها.. سأقرأ.. سأقرأ كلماتك يا جدي.. لأعلم و اتعلم.. و لأكشف ذلك السر الذي اردت ايصاله لي.. رحمك الله يا جدي.. و يرحمنا جميعًا برحمته الواسعه و يعيننا على فهم ما نراه و نعلمه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14

في صباح اليوم التالي، فكرت أن امر بالمحطه الاذاعية لأري أروي و اطمئن على احوالها، فطوال الايام السابقة لم اراها، و لم استطع الاكتفاء بالمكالمات الهاتفية اليومية المتبادلة بيننا.. انتهيت من فطوري و ذهبت الى محطة الاذاعه.. مررت عليها بمكتبها في الدور الثالث فوجدتها غارقة في اوراقها و اعمالها.. تبادلنا الحديث لحوالى النصف ساعه.. ثم رحلت لأتركها تكمل عملها في سلام.. قبل رحيلي عن مقر المحطة، مررت على عم خالد و تبادلنا المزاح و القفشات الفكاهية.. قررت أن استجم قليلًا.. ذهبت لكورنيش النيل لأستنشق بعض الهواء النقي بعيدًا عن عوادم سيارات القاهرة الخانقة..

بعد ان اعدت تجديد رئتي، عدت الى المنزل و قد حان موعد الظهيرة.. دخلت الى غرفة المكتب، و امسكت بأوراق جدي لأكمل قراءة ما كتبه لي، و لمعرفة مزيد من الاسرار..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد حادثة اصابتي بكسر في الساق اليمني، داومت الفراش لمده اسبوعين لإرتدائي جبيرة الجبس.. بعدها فاض بي الكيل من شدة الملل، قمت الى معملي مرة اخرى لأكمل تطويري للآلة.. لقد كانت فترة الاسبوعين الماضيين كافيةً لإلهامي بالعديد من الافكار والتطويرات التي ستقفز بالآلة خطوات كثيرة للامام..

كانت المشكلة الاولي بالنسبة لي هي الطاقة، فبسبب قلة الطاقة المخزنة بالآلة، لم استطع المكوث في الماضي كثيرًا.. لذلك قررت العمل على تلك النقطة.. احتاج زياده معدل طاقة الآلة بأي طريقة..

ظلت تلك المشكلة هي محور بحثي و شغلي الشاغل طوال شهر كامل، توصلت فيه الى بدائل جديدة للطاقة بإستخدام بعض العناصر و المركبات.. كم اجهدتني تلك المرحلة بالفعل، ولكنها حمدًا لله، نجحت اخيرًا، و استطعت إطالة الفترة المتاحة للمكوث في الزمن الاخر الى ما يقرب من سبعين ساعه كاملة، ولم استطع زيادتها اكثر من ذلك لأنها - وفقًا لمعادلاتي - اكثر فترة ممكنه للآلة تتمكن فيها من الاحتفاظ بطاقتها اللازمة لإتمام عملية العودة للحاضر مرة اخرى..

و بسبب تلك النقطة السابقة، قمت ببرمجه الآلة و تهيئتها بخطة استثنائية، يتم تفعيلها في حالة عدم الرجوع للزمن الحالى بعد فترة تُقدر بحوالى ستين ساعه، فإن الآلة ستقوم بفتح أقرب ممر دودي بديل للممر الرئيسي حيث تم الانتقال منه لذلك الزمن، و تعود بحامل الآلة الى زمننا الحالي..

أما إذا وقع حادث ما لحامل الآلة، و لم يستطع التواجد مع الآلة وقت الرحيل بعد فترة الستين ساعه، فإن الآلة ستفعّل الخطة الاستثنائية و تنتقل وحدها لحاضرنا من نفس موقع الانطلاق الاساسي، حتى يتم حماية الآلة من الوقوع في الأيدي الخطأ

في الزمن الماضي، و منع أي اختلالات قد تحدث في الزمن بسبب اكتشاف اجدادنا لتلك الآلة الخطرة..

بعد ذلك الشهر، تخلصت من الجبيرة اخيرًا، و استلزمني حوالى الاسبوع كي تعود ساقي للياقتها الطبيعيه، و بالرغم من تجاوزي الستين بعده سنوات، إلا أنني استطعت الحفاظ على صحتي بالمداومة على ممارسة بعض من الرياضة و الالتزام بنظام معين لتناول الطعام، و ذلك - بعد عناية الله و حفظه - هو سبب نشاطي و لياقتي الصحية الجيده بالنسبة لسني الطاعن..

انشغل بالى كثيرًا بزمن الرحلة القادمة، فالخيارات واسعه و ممتده امامي، و الوقت ضيق و لا اعلم الى متي سيمكنني استعمال الآلة بسلام.. جال بذهني خاطر أن اسافر لزمن الدولة النازية، فتلك الفترة لطالما ألهبت خيال الأدباء و الروائيين بما فيها من أحداث تاريخية و شخصيات ذات كاريزما عاليه، اشهرهم الهر أدولف هتلر قائد النازية الاكبر..

اقشعر بدني فور ان تذكرت هتلر.. فبالرغم من افتتاني الشخصي به، و بشخصيته الحازمة و عبقريته السياسية، إلا أن الرحمة لم تكن من صفاته المحببة، فلقد كان السبب الاول في مقتل الالاف من الابرياء، بعيدًا عن صحة ما فعله بحق اليهود، إلا أن شره لم يسلم منه أحد على وجه الارض وقتها..

انتابني القلق، فتلك الفترة لم تكن بالسهلة، و ذهابي لها سيحمل كمًا من المخاطرة و قد تؤدي لحتفي بالفعل، إلا أن قراري بالسفر مرة اخرى بعد اخر رحلة تمت، منحني حماسًا لا يوصف، اعاد لذاكرتي حماس الشباب، و الدم الثائر في العروق يوم أن كنت شابًا في وقت من الاوقات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدأت من اليوم التالى الإعداد لرحلتي القادمة المحفوفة بالمخاطر.. استلزم شحن الآلة لتجهيزها للرحلة حوالى تسعه أيام.. قضيت تلك الايام التسعه في الاستعداد للرحلة.. قمت بعمل جرد لمكتبة جدي الضخمه لإستخراج كل ما لدي عن الفترة النازية.. وجدت بالفعل حوالى ما يقرب من سته كتب، منهم مجلدين مكدسين بالصور الفوتوغرافية التي تسجل أهم فترات تلك الفترة..

استغرقتني القراءة في تلك الكتب السته طوال فترة شحن الآلة، و انتابني كثير من الحماس الممزوج بالقلق و الهلع احيانًا اثناء قرائتي لما كتب عن تلك الفترة.. لم استطع اختيار افضل فترة يمكن السفر اليها للاستزاده و معايشة الاحداث كما حدثت بالفعل وقتها.. فتلك في رأيي المتواضع، افضل طريقة ممكنه لي حاليا لمعرفة التاريخ، بدلًا من التقيد بما كتب في السجلات، و التي قد يتم تدوينها في ظروف معينه بهدف طمس الحقائق أو صنع تاريخ مزيف لمن لا يستحق..

بعد تصفيتي لعديد من الاختيارات، اخترت يوم الجمعه الموافق الرابع من شهر نوفمبر لعام 1921.. ذلك اليوم الذي تم فيه إنشاء ما يسمي بـقوات العاصفة، الذراع

المسلح للحزب النازي، والتي كانت من اشد المساندين ولاءًا لقائد النازية أدولف هتلر، وتشبه لدينا قليلًا مراكز القوي و المخابرات في فترة الستينيات..

في ذلك اليوم بإحدي قاعات فندق هوفبروهاوس العريق بالمدينة الالمانية ميونيخ، سيدعو الحزب النازي لإجتماع سيتحدث فيه هتلر ثم سيحدث هرج و مرج في تلك القاعه من جانب المعارضين للحزب النازي و هتلر، و يتمكن رجال حرس الحزب في ذلك اليوم من دحر هجمات المعارضين جميعًا، ليصبح هؤلاء الحرس بعد ذلك نواةً لقوات العاصفة.. تلك هي بداية تكوين جيش النازية بالفعل..

انقضت فترة التسعه ايام، وتأكدت من شحن الآلة بالكامل.. قمت بتهيئة ملابسي.. وجدت بعض ملابس والدي القديمة، اعتقد انها ستفي بالغرض، فهي تشبه الملابس المعتادة لتلك الفترة بالفعل.. وقمت بإمساك الآلة و ظبط التاريخ والمكان.. بسملت في سري.. ثم ضغطت الزر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استطعت تلك المرة ان اتخلص من احساس الدوار و الغثيان بسرعه نسبيًا.. يبدو أنني سابدأ في اعتياد ذلك الشعور بالفعل.. اخرجني افتتاني و اندهاشي بالمشهد من التركيز في شعوري بعد الانتقال.. كان المشهد بديعًا امامي.. فها أنا في زمن يسبق مولدي بأكثر من عشر سنوات كاملة!!

اخذت في تأمل الناس من حولي في افتتان.. كم تختلف الاذواق وقتها عن اذواقنا الآن.. انتابني شعور بالعظمة بمجرد رؤيتي لملابس المارة امامي وقتها، اغلب الرجال إن لم يكن كلهم، يسير في خيلاء وقد ارتدي حُلته كاملةً، و ازدانت ملابس السيدات بالنقوش والقبعات الانيقة.. بل إن الاطفال أنفسهم شعرت بالاعجاب لما يرتدونه من ملابس فخمة تنم عن ذوقٍ عالٍ..

نظرت في ساعتي، إن اجتماع الحزب سوف يُقام بعد حوالى ساعه، يجب على الاسراع.. سألت أحد المارة من حولي عن فندق هوفبروهاوس مستعملًا لغتي الألمانية البسيطة نتيجة قراءات شغوفة لمده سنين في تلك اللغه الممتعه.. دلّني الرجل على اتجاه الفندق، و إن استدل من لهجتي و مصطلحاتي أنني لست من المنتمين لألمانيا.. و كم ستكون دهشته إن علم بأني لست من المنتمين لتلك الفترة الزمنية من الاساس..

بعد مسيرة ربع ساعه تمكنت من الوصول للفندق.. تأملت واجهه الفندق.. الفندق مطلي باللون الابيض و يغطيه سقف قرميدي كأغلب اسقف المباني الاوروبية وقتها، و تصطف نوافذه في طابقين ويتوسطها ناصية الفندق التي تطل من الجانب على قارعه الطريق..

ولجت الى الفندق و حاولت السؤال على القاعه بأقل الكلمات الممكنه تجنبًا للوقوع في الخطأ و كشف شخصيتي بزلات لساني.. وصلت للقاعه و حجزت أحد المقاعد و جلست في انتظار بدء الخطبة..

لاحظت ازدحام المكان بعد دقائق بمعارضي الحزب النازي، وهم من يُطلق عليهم هتلر لقب المشاغبين الحمر، و بدا من تصرفاتهم و كلامهم أنهم من طبقة العمال الكادحين، و ظهرت رغبتهم في تعطيل الاجتماع..

بالرغم من ذلك، عندما حان الوقت، وقف هتلر وراء المائدة المتوسطة للقاعه لإلقاء خطابه.. تسارعت دقات قلبي بمجرد رؤيتي له.. تختلف رؤيته في الحقيقة عما نراه في التسجيلات و الصور، فهو لم يكن طويل القامة، ولكن لحضوره هيبة طاغية.. بالفعل لهذا الرجل مقدار من الهيبة و الكاريزما يمكن قياسهم بالاطنان.. فبمجرد وقوفه واستعداده للتحدث، صمت الجميع بمن فيهم المعارضين المشاغبين و امسك كل منهم بكوب جعته و اخذ في احتسائها بهدوء.. و بدأ هتلر في كلامه..

تحدث هتلر منذ البداية بكل قوة، و اثناء حديثه كان ينتفض بجسده و ذراعيه في حركات عنيفه تحرك خصلات شعره الفاحم على جبهته الطويلة، تلك الانتفاضات التي ميزّت طريقة خطابته و التي سحر بها لُب الألمان لسنوات عديده، تبعوه فيها نحو النصر، حتى اتت نكساتهم الحربية لتطيح بحلم الدولة النازية و شعار ألمانيا فوق الجميع التي طالما تغنوا به..

بعد حوالى ساعه من الخطاب، اشتدت حدة اسلوب هتلر، و استغل سيطرته على الحشد المجتمع بالقاعه، و امتلاكه لعقولهم بخطابه المؤثر، فبدأ في مهاجمه المعارضين باللفظ و التجريح.. استغل احد الحضور من المعارضين ذلك التجريح ايما استغلال.. فنهض بقامته الطويلة و نادي للحرية ثلاث مرات، ليردد انصاره من ورائه هتافاته.. ثم في لحظات اشتعل الموقف..

بدأت اعمال الشغب في القاعه الفخمة، فقام المعارضون بقلب الموائد و الطاولات، و اتجه بعضهم لجمع الزجاجات الفارغه و إلقائها على هتلر و اعوانه من الحزب النازي، و اختلط الصراخ بأصوات الزجاجات المتحطمة، و في وسط الهرج والمرج، استطعت أنا ان افلت بنفسي و اتجه صوب المخرج.. و لكن أثناء خروجي اثار انتباهي سقوط احد الاوسمة العسكرية لأحد الحرس على ارضيه القاعه بجانب احد الحوائط، بدافع الفضول امتدت يدي لإلتقاط الوسام و وضعته بسرعه في جيب معطفي الثقيل الذي ارتديته لإتقاء البرد أولًا و لإخفاء الآلة بداخله ثانيًا..

اثناء نهوضي، طالتني إحدي الزجاجات الملقاه في الهواء، فأصابتني في جبهتي إصابه بالغه تدفق على إثرها الدماء من صدغي الأيمن.. حاولت الهرب بأسرع ما يمكن من ذلك المكان، خاصةً بعد رؤيتي لبعض الاسلحة النارية التي بدأت في الظهور من كلا الجانبين..

بعد دقائق، استطاع عدد كبير من الحضور ان يهرب لخارج القاعه، و بمجرد خروجي من باب القاعه و اتجاهي لردهه الفندق مع الزحام المتحرك تجاه المدخل، اندلع انفجار كبير من خلفنا، اثار موجه هائلة من الذعر اسرعت بدفعي تجاه المدخل فلم اتبين نتيجة ما حدث، و إن علمت بعد ذلك من قرائتي لكتاب كفاحي الذي كتبه أدولف هتلر بنفسه، أنه قال أثناء وصفه لذلك اليوم، أن الانفجار قد قتل ما يقرب من خمس حراس، إلا أن ذلك لم يفت في عضد الحراس المرابطين، فأكملوا

مقاومتهم لمعارضيهم حتى استطاعوا دحر ما تبقي منهم، و استكمل هتلر خطابه و انهي خطابه بمشاركته في الاناشيد القومية التي طالما كانت تُنشد بعد الخطابات..

استطعت الخروج من الفندق، و مازال جرحي ينزف.. حاولت العوده لموضع الانتقال، و استطعت ذلك بعد مسيرة خمس عشر دقيقة.. تأكدت من ابتعادي عن اعين المارة.. فأخر ما اريده أن يراني احدهم اثناء فتحي لبوابة الممر الدودي واختفاءي داخله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عدت الى معملي، و بمجرد العودة اسرعت الى دورة المياة لغسل جرحي الذي نزف كثيرًا في الدقائق السابقة.. و بعد ان انتهيت من تطهير و تضميد الجرح.. جلست على مكتبي لأستريح من عناء تلك الرحلة الشاقة.. كانت بالفعل رحلة شاقة كما توقعت.. ولكني احمد الله اني عدت منها حيًا.. فقد كان الموت قيد انمله مني إن لم استطع الهرب في وقت مناسب للنجاة من ذلك الانفجار القاتل..

ما حدث لي خلال رحلتي السابقة و ما قبلها ايضًا، اثار لدي موجه من القلق.. فتلك الرحلات بأغلبها طالني الخطر فيها مرات عديده.. إذن ماذا افعل إن حدث المحظور و وقع ما لا يُحمد عقباه و نال مني الموت في احدي تلك الرحلات؟؟

قررت بعد تلك الرحلة أن احتفظ بالمذكرات في مكان آمن، و في نفس الوقت، يمكن لك ان تصل اليه بعد مماتي.. لم أجد مكانًا افضل من بيت صديقي عبد الله.. فذلك الصديق الوفي قضيت معه اغلب سنوات عمري، و استطيع أن اترك المذكرات معه بدون اي قلق او اي خوف.. و هذا ما حدث.. فكنت اترك المذكرات معه قبل كل رحلة اقوم بها.. فإن عدت بسلام.. ذهبت اليه في اليوم التالى و اخذت منه المذكرات لأدون ما حدث لي فيها.. و إن لم أعد و قبض روحي ملاك الموت.. كانت المذكرات في امان عنده.. و تصل اليك بعد أن يتأكد عبد الله من وفاتي..

توقفت عند نهاية تلك الورقة من مذكرات جدي.. لأتمتم بصوت خافت:

اهي المذكرات جت لي فعلًا يا جدو.. الله يرحمك.. و متخافش.. صاحبك ادي امانته فعلًا..

ربطت بين ما قرأته الآن و سر الوسام العسكري القديم.. ذاك هو الوسام الذي وجدته مع اروي و سألت صبحي عن حقيقته.. قمت من موضعي لأتجه لدرج المكتب حيث تركت الوسام.. اخذت في تأمله للحظات.. إذن.. فذلك الوسام ينتمي لأحد حراس هتلر النازيين.. يا لسخرية القدر.. هاهو ينتهي به المصاف معي بدلًا من ان يوضع في أحد متاحف برلين..

رنّ هاتفي المحمول بغته، و ارتفع صوت الرنة المميزة لـأروي.. نظرت للساعه بسرعه لأجدها تقترب من الواحده و النصف ظهرًا.. غالبًا لقد انتهت من عملها و ترغب في سؤالى ان نخرج معًا بعد عودتها للمنزل..

امسكت بالهاتف و قمت بالرد فورًا..

- ألو.. ايوا يا حبيبتي؟

باغتتني صوت بكاء اروي بشكل هستيري.. فسألتها في سرعه ممتزجه بالفزع:

- اروي!!!! حصل ايه؟؟ بتعيطي كده ليه؟؟ حصل ايه يا اروي؟

اجابتني وسط نحيبها و بكائها:

- الحقني يا ادهم.. شوف الحيوان اللي اسمه ممدوح عمل معايا ايه؟

انتابني الغضب فورًا فاجبتها:

- عمل ايه الزفت دا؟؟

لم استطع تبيان كلامها من كثرة نحيبها، ليزداد غضبي و ثورتي.. فأجبتها بسرعه:

- اروي لو انتي لسه عند الشغل، استنيني انا جايلك حالًا..

ارتديت ملابسي في عجله لأستطيع الوصول لـأروي و اعلم ماهية الورطة التي حدثت لها.. يا الله.. ارحمنا برحمتك فأنت ارحم الراحمين!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15

استلزم من الوقت ما يقرب من النصف ساعه كي أصل لـأروي.. و بمجرد وصولي للمحطة، ذهبت لمكتبها فوجدتها بجانب رفيقاتها، و قد انهمر الدموع من عينيها فاغرقت ملابسها من شدة البكاء.. انفعلت بشدة محاولًا فهم سبب بكائها الشديد..

بدأت في سرد ما حدث وسط نحيبها و بكائها المتقطع..

كنت قاعده في مكتبي شغالة كالعاده.. لقيت استاذ ممدوح بيطلبني فورًا.. سبت اللي ف ايدي و رحت له، دخلت.. قعدت.. بدأ يسألني اسئلة كتيرة مش منطقية و مش عارفة سببها.. انتي ايه حدود علاقتك بأدهم؟ هل مستواه المادي كويس؟ هل مستريحة معاه ولا لأ؟ ليه ارتبطتي بيه بالذات دونًا عن بقية اللي معاكي في المحطة؟ شوية اسئلة بجد معرفتش سببها ايه.. و لما نبهته أن الاسئلة دي شخصية و ملهاش علاقة بالشغل قمت طالبه اذنه بإني اخرج من المكتب وقمت.. جه بسرعه عليا و قاللي مش قصدي والله.. انا بس بهتم بيكي زي اختي الصغيرة و اكتر.. ولقيته حط ايده على دراعي.. ساعتها معرفتش امسك نفسي وقمت مزعقه في وشه.. واتهمته بالتحرش بيا في مكتبه.. الحيوان..

و هنا انهمرت دموعها بغزارة، لأبدأ انا في الاشتعال.. إذن.. لقد جعلت صراعنا شخصيًا بالفعل أيها الوغد.. حسنًا.. الويل لك.. قاطع استطراد أروي ثورتي الداخلية..

اول ما قلت له كده.. لقيته بدأ يزعق و يرفع صوته، و راح فتح باب المكتب و خلي الكلام قدام الناس، و اتهمني انا اني بحاول ارشيه جنسيًا علشان يخفف عنك الجزاء و يرجع برنامجك تاني بعد اللي عملته مع محمود الشربيني.. الحيوان عاوز يبوظ سمعتي قدام الناس.. انا انذهلت اول ما سمعت الكلام دا بيطلع منه، و من كتر إتقانه لدور المسكين، شوية ناس من اللي واقفين شكلهم صدقوه فعلًا.. انا مقدرتش استحمل بجد.. جريت على مكتبي و زميلاتي لحقوني بالعافية و اغمي عليا مرتين..

فاض بي الكيل بعد حديث اروي.. ذلك الوغد البائس استحق ما سأفعله له.. انطلقت الى مكتب ممدوح بالرغم من محاولات أروي المستميتة لإيقافي.. لن يوقفني احد الآن.. سألقن ذلك السافل درسًا لن ينساه بالفعل!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خلال ثوان، وصلت لمكتب مدير المحطة، و لم اعر انتباهًا للسكرتيرة.. لقد اتجهت مباشرةً نحو باب المكتب.. دفعته بقوة متسببًا في شروخ جسيمة في مواضع عديده منه.. دلفت للمكتب فوجدت ذلك الوغد جالسًا بكل اريحيه على مقعد مكتبه ممسكًا بهاتفه المحمول و قد غرق في نوبة ضحك مع المتحدث بالطرف الاخر.. بمجرد دخولي، اختنقت الضحكات في حلقه، ليخرج صوته متحشرجًا..

- انتا ازاي دخلت كده يا بني ادم؟

لم اجبه.. على الاقل باللفظ.. فلقد كانت إجابتي هي الامساك به من ياقة قميصه، ثم اذقته طعم قبضتي.. كان الامر غريبًا بالنسبة لي، فأنا طوال حياتي لم اكن من المتشاجرين و لم ألجأ للعنف كوسيلة لحل مشاكلي ابدًا، و لكن الموضوع الآن اختلف.. فأنا ادافع عن شرفي و شرف حبيبتي اروي.. و لابد لذلك الوغد الدنئ من نهاية لكل تجاوزاته المتكررة..

انهالت عليه اللكمات مني، اللكمة تلو الاخرى، حتى شعرت أن قبضاتي صارت كآلة ميكانيكية تعمل بدون قائد، تسببت لكماتي في اصابته بكدمات و جروح قطعيه غائرة بوجهه، سالت من جرائها الدماء بغزارة شديدة.. بعد دقيقتين من اللكمات و السباب المتواصل، صار وجهه كتله من اللحم المفروم، و استطاع بعض الزملاء ان ينقذوا ممدوح من يدي بصعوبة بالغة..

استقوي ممدوح بمن حوله و استغلهم كوسيلة للضغط، فبدأ في الصراخ و العويل و محاولة إنكار أي تهم عن نفسه، و إلقاء اللوم على و على أروي..

- شفتوا يا نااااس.. شفتوا البيه المحترم؟؟ جاي يتهجم عليا جوا مكتبي؟ يعني الهانم بتاعته بتحاول تغويني و هو جاي يضربني.. دي بقت سوق خضار مش مكان شغل محترم!!!

اجبته بكل غضب: متتكلمش انتا عن الاحترام يا.. وارفقت جملتي بصفعه على وجهه اخرسته و زادت من اشتعال الموقف.. ليتمكن بعدها من الصياح بوجهي ولأول مرة بعد امساك زملائي لي و محاولة ابعادي عنه..

- اخرج برااااااااا.. انتا مرفوووووود انتا و السنيورة.. اطلعوا برة المحطة يا شوية كلاااب!!

تناوبنا السباب و الصياح حتى قام زملائي بإنهاء الموقف و محاولة تهدئة الطرفين.. عدت الى اروي لأرحل معها، فوجدت أن احدي زميلاتها قد قامت بإيصالها لمنزلها بعد ان فقدت الوعي مرة اخرى.. خرجت بسرعه لأستقل الحافلة لكي أصل لـأروي.. و اثناء ذلك قمت بالاتصال بها على هاتفها المحمول، فأجابت اروي بصوت رقيق غلبت عليه اثار التعب:

- ايوا يا ادهم.. انا اسفة بجد.. اغمي عليا و لقيت شيرين بتاخدني معاها في العربية توصلني للبيت..

اجبتها في هدوء: خلاص مفيش مشكلة.. انا خدت حقنا..

اجابتني في سرعه: عملت ايه؟ اوعي تكون اتهورت زي عادتك يا ادهم!!

رددت: اتهورت.. لأ متقلقيش.. مفيش اي تهور.. هاحكيلك اللي حصل لما اجيلك

اجابت: لأ يا ادهم.. متتعبش نفسك ارجوك.. انا ان شاء الله هريح في السرير و ابقي كويسة بكرة..

اصررت على المجئ اليها و لكن لم يكن لإصراري فائده امام عناد اروي الشديد.. لأضطر للذهاب لمنزلي عوضًا عن منزلها، و قد انتابني الغضب مما حدث اليوم، ومما آلت اليه الأمور..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عدت للمنزل.. لم اقم بتغيير ملابسي من فرط غضبي و عدم تركيزي.. فكان نومي هو الحل الأمثل للهروب من ذلك الموقف..

استيقظت مساءًا على صوت أذان العشاء.. قمت بالاستحمام و اداء صلاة العشاء و ما فاتني قبلها من صلوات ضيعتها اثناء نومي.. وبمجرد انتهائي، اتصلت هاتفيًا بـأروي للاطمئنان على حالتها.. اجابتني والدتها بصوت هادئ:

- ازيك يا ادهم يابني دلوقتي؟ عامل ايه؟

-الحمد لله يا امي.. اروي عامله ايه دلوقتي؟

- والله يا ادهم لسه نايمة.. من ساعه ما جت و هي راقده في السرير.. بس بإذن الله تصحي بكرة فايقة..

انتابتني الحسرة، فلقد رغبت في سماع صوتها للتأكد من سلامتها، و لم استطع بالطبع ان اطلب من امها ان توقظها من نومها.. إذن فليتأجل حديثنا للغد.. اجبت والدتها و خيبة الامل واضحه في صوتي:

- خلاص يا امي.. خليها تستريح و إن شاء الله بكرة اجي اشوفها إن امكن

- تنور يابني البيت بيتك في اي وقت.. ربنا يخليك لينا يا ادهم..

- العفو يا امي.. ربنا يخليكي انتي لينا.. السلام عليكم..

انهيت الاتصال ثم قمت لأري ما يمكن عمله اليوم فلم أجد افضل من استكمال قراءة مذكرات جدي.. عسي أن تكون بلسمًا شافيًا لجروح نفسي، و خير مخرج من تلك الساعات القاتمة..

ظللت لأيام في حالة نفسية بديعة.. فلقد كانت رحلتي الاخيرة بالرغم من متاعبها الجسيمة، إلا أنها اعطتني دفعه معنوية شديدة لأكمل تجاربي و اطور من آلتي العزيزة..

كان موعدي مع القدر في تلك الليلة التي اعدت فيها فتح صندوق مقتنيات والدي الراحل - رحمه الله - حيث وجدته موضوعًا اسفل دولابه.. ذلك الصندوق كان كالبوابة التي فُتحت لتعيد ذكرياتي امام ناظري كشريط فيلم سينمائي.. وجدت الغليون الخاص بوالدي، نظارته ذات العدسات الزجاجية شديده النقاء، محفظته الجلدية الفخمة المصنوعه بأيدي افضل الصناع الايطاليين.. ثم ساعته.. تلك الساعه الذهبية المميزة من الطراز المسمي بساعه الكاتينة ذات السلسلة و التي اشتهر بها والدي في شارعنا قديمًا.. نالت تلك الساعه اعجابي منذ ان رأيتها في صغري...

تناولتها بأنامل مرتعشة، تأملتها في رهبة و اعجاب.. تلك النقوش المتداخلة، و مقبضها الصغير المنمنم، و بيت الشعر المنقوش على غطائها الذهبي والذي نظمه والدي بنفسه و طلب ان يتم تدوينه على الساعه.. و ما الحياة إلا رحلة.. كلنا فيها مسافر..

اعدت قراءة البيت مرات و مرات.. يالها من جمله بليغه، تحمل في طياتها معانٍ عديده.. و لقد ادركتها بالفعل بعد ان سافرت في ثلاث رحلات استعدت فيها ازمانً غابرة.. كلنا نسافر في حياتنا.. نسافر في المكان و في الزمان، و لكن سفرنا محكوم بقوانين صارمة تمنعنا من العودة.. و ها أنا قد اخترقت تلك القوانين و عدت بالفعل.. عدت اكثر من مرة.. و قد اعود مرات اخرى ايضًا..

استغرقت في ذلك الصندوق لساعات، عدت بعدها لتجاربي و تطويري لآلة النقل.. بعد ان انتهيت من مشكلة تخزين الطاقة، واجهتني مشكلة اخرى.. ألا و هي الحجم الكبير نسبيًا لجزء اعاده النقل، و الذي اضطرني في الرحلات السابقة ان احاول تخبئتها بأي شكل او بوضعها في ثنيات ملابسي الثقيلة.. لذلك اردت ان اتوصل لحل يغنيني عن عناء اخفاء الالة..

استطعت بعد مراحل متتابعه ان اقلص حجم الالة كثيرًا، فصارت في متناول اليد بدلًا من كونها في حجم علبة متوسطة الحجم.. لا اعلم لماذا.. و لكن مرأى ساعه والدي القديمة لم يبتعد عن ذهني.. و انتابتني رغبة شديده في استعمال تلك الساعه فيما يتصل بتجربتي..

قمت بفك الساعه بحرص شديد، و استطعت بخبرتي المتواضعه ان اغير قلب الساعه اليدوي بجهاز ميكانيكي صغير يتولي تشغيل الساعه بشكل عادي، و في نفس الوقت امكنني ان افرغ مساحة كبيرة داخل الساعه، فحملت بداخلها الجزء الخاص بإعاده النقل، و بعد انتهائي من جمع اجزاء الساعه، صارت الساعه الآن هي آلتي الجديده..

شعرت بفرحه عارمي تجتاحني لنجاحي في تنفيذ تلك الخطوة الهامة.. فذلك التطوير الاخير اتاح لي ان اتخلص من مشكلة الحجم و ما قد ينتج عنها من مشاكل و اخطار تهددني في رحلاتي بسبب انتباه الاخرين من حولي للآلة.. بالاضافة لذلك، فلقد جمعني ذلك التطوير بجزء من والدي سيظل معي دائمًا في رحلاتي.. أستمد منه الدعم و الثبات.. و اشعر معه بالاطمئنان و الراحة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اغلقت مذكرات جدي، مكتفيًا بما قرأت اليوم و خلدت للنوم مرة اخرى استعدادًا لزيارتي لـأروي صباح الغد..

استيقظت في الصباح على صوت رنين جرس الباب.. قمت مسرعًا، و بمجرد ان فتحت الباب فوجئت بـأروي واقفة امامي..

- أروي!! انتي ايه اللي قومك من السرير؟؟

اجابتني اروي في هدوء:

- بعد اللي حصل امبارح قلت لازم انا اللي اشوفك بنفسي

احتضنتها و قبلتها على جبهتها..

- ربنا يخليكي ليا.. بس برضو مكانش ينفع تتعبي نفسك و تيجي.. انا كنت جاي لك كمان شوية

ابتسمت قائلة: خلاص انا جيت لك لحد عندك.. اخبارك ايه دلوقتي؟

بادلتها الابتسام و اجبتها اثناء دخولنا لغرفة مكتب جدي:

- الحمد لله انا كويس مادام شفتك.. و متقلقيش.. اخدت حقنا من اللي اسمه ممدوح دا..

انزعجت قليلًا لدي سماع اسمه.. و رجتني قائلة:

- بلاش تنطق اسمه تاني.. حسبي الله ونعم الوكيل فيه.. انا بعد ما صحيت امبارح بالليل، شيرين زميلتي حكت لي على التليفون انه رفدنا من الشغل؟

اجبتها بحزن: اه.. للاسف.. كده بقينا عواطليه احنا الاتنين..

ابتسمت ثم غمزت بعينيها و قالت: احسن.. خلصنا من وشه.. ان شاء الله ربنا يعوضنا في شغلانة تانية

استمر حديثنا لدقائق اخرى حتى انستني واجب الضيافة.. فقمت لعمل كوبين من الشاي لنا.. تبعتني للمطبخ و تحادثنا قليلًا اثناء اعدادي للشاي، ثم عدنا للمكتب مرة اخرى..

وضعت اروي كوب الشاي امامها على سطح المكتب ثم سألتني في اهتمام:

- مقولتليش ايه الموضوع اللي كان عاوزك فيه استاذ عبد الله المحامي؟

لم ارغب ان اروي لها موضوع مذكرات جدي.. فاختلقت الاجابة لكي انهي هذا الموضوع:

- اااه.. دا كان بيكلمني في مواضيع بخصوص الميراث و كده.. و بيسألني لو احتجت اي حاجة اني اطلبها منه على طول.. راجل ذوق اوي فعلا..

قبل ان تتفوه اروي بكلمه اخرى، رنّ جرس هاتف المنزل بصوته المزعج، فاهتزت أروي من المفاجأة و ارتطمت يدها بكوب الشاي الذي سرعان ما هوي على الارض و تهشم لعشرات القطع الزجاجية..

اسرعت اروي بتجميع القطع المتناثرة فيما قمت أنا لإجابة الهاتف.. خرجت الى الردهة لأجيب على المكالمة، فوجدته متصلًا قد اخطأ الاتصال.. عدت الى غرفة المكتب.. لأندهش مما رأيت..

وجدت اروي واقفة في وسط المكتب.. حاملة بين يديها ذلك الشئ الذهبي.. انها ساعه جدي الذهبية!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سألتني أروي في براءة:

- إيه دي يا ادهم؟؟ وانا بجمع الازاز المتكسر، لقيتها مرمية جنب المكتب في حته مش واضحة.. دي شكلها ساعه دهب بجد!! عليها نقوش حلوة اوي و مكتوب عليها جمله كده مش عارفة اوضحها اوي.. مكتوب و ما الحياة إلا.... إلا..

اجبتها في دهشة: رحلة.. كلنا فيها مسافر!!

ردت بدهشة مماثلة: صح.. عرفت منين؟!

اجبتها: دي ساعه جدي الله يرحمه.. بس ازاي وصلت هنا؟

اجابت في تلقائية: مادام بتاعة جدك يبقي اكيد هتبقي هنا في مكتبه.. بس حلو اوي الزرار اللي فيها دا.. شكله مميز عن الساعه كلها و اكملت جملتها بالضغط على ذلك الزر..

صرخت بها قائلًا: لأأأأأأأأأ...

اندهشت عندما صرخت بها كذلك.. تلك كانت المرة الاولي التي اصرخ بها بتلك الطريقة وبدون سبب مقنع.. فسألتني و قد تملكتها الصدمة:

- ايه يا ادهم!! زعقت لي ليه؟؟

لم استطع اجابتها بسبب عقلي الذي ازدحم بالاسئلة و الاستفسارات.. كيف لم تنتقل في الزمن بمجرد ضغطها للزر؟ هل تلك الساعه هي بالفعل ساعه جدي الذي طور آلة الزمن بها؟ لقد اكدت اروي ذلك بقرائتها لبيت الشعر المدون على ظهر الساعه.. و لكن لماذا لم تنتقل؟ هل كانت مذكرات جدي كلها اوهام من صنع خياله؟؟

اسرعت تجاه أروي و اخذت منها الساعه لأعاينها عن قرب.. اندهشت اروي من افعالي، و شرعت في سؤالى بعصبية بينما لم التفت لما تقول.. فقد انشغلت بالفعل في معاينه الساعه.. انها نفس النقوش التي كتب عنها جدي في مذكراته.. و نفس بيت الشعر المدون.. و ازرار الساعه التي ترتبط بآلة الزمن بداخلها، كما أن التاريخ المضبوط بالساعه في خانة التاريخ لم يمت ليومنا بصلة فعلًا، و عقارب الساعه لم تشر لوقتنا الآن.. ماهذا الذي اراه.. واقع ام خيال.. حقيقة ام وهم؟؟ شعرت بعقلي ينشطر نصفين من كثرة ما اعانيه الآن من التفكير.. و قطع تفكيري صياح أروي..

- ادهم رد عليا!!! انتا بتعمل كده ليه؟؟

اجبتها بهدوء: من فضلك يا اروي.. سيبيني دلوقتي لوحدي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم ادر كيف طلبت منها هذا الطلب.. ولا كيف قلته بتلك الطريقة.. حتى اروي نفسها لم تصدق ما سمعت.. ولكنها خرجت من الباب مسرعةً و الدموع تتفجر من عينيها..

امسكت بالساعه.. غير مصدق لما حدث.. سواء عثور اروي على الساعه بالصدفة البحته.. او ما قلته لـاروي الآن.. بعد دقائق استفقت من تلك الحالة التي غرقت فيها قليلًا.. و انزعجت مما حدث، يجب أن اكلم اروي في الهاتف حالًا لأعتذر لها عن سوء تصرفي..

لقد اثبتت العلماء انه لا وجود لما يسمي بآلة الزمن.. و هاهي اروي تثبت ذلك بالتجربة العملية.. لقد ضغطت زر الساعه فلم يحدث اي شئ او يتغير ما حولنا قيد انمله.. لقد اندفعت و صدقت ما حدث لرغبتي في رؤية جدي الراحل ولو لمرة اخيرة.. و لكن كلا.. لقد توفي جدي بالفعل.. و ما ذهب لن يأتي ثانية..

كنت قد هممت بطلب أروي على الهاتف، و لكن استوقفني تلك الخاطرة الاخيرة.. ما ذهب لن يعود ثانية.. تذكرت كلمات جدي في مذكراته.. لقد وضع للآلة خطة استثنائية تجبرها على أن تعود للحاضر تلقائيًا بعد ستين ساعه إذا لم يتم الانتقال يدويًا للحفاظ على التجربة من الوقوع في الايدي الخاطئة بالماضي.. و كذلك قال جدي ان الساعه يتم شحنها بالطاقة من اجهزة المعمل الخاصة به.. فماذا لو أن الساعه قد نفذت الطاقة المخزنه بها، لذلك لم يحدث اي انتقال عندما ضغطت اروي على زر الانتقال..

بدأت ملامح الصورة تتجمع امامي قليلًا.. هرعت لمذكرات جدي اقلبها في سرعه حتى وصلت لآخر صفحة و قرأتها في عجلة..

قررت في رحلتي القادمة ان اسافر لزمن الحجاج بن يوسف الثقفي.. ذلك الرجل الذي اختلفت فيه الاراء، فهناك من وصفه بالمبيد و السفاح لكثرة من قتل في عصره ظلمًا، و لجرائمه الشنعاء في حق المسلمين حتى وصل به الامر لضرب الكعبة المشرفة بالمنجنيق.. بينما يصفه البعض الاخرون بحافظ القرأن الكريم و القائد المؤمن الذي يبكي لسماع ايات الذكر الحكيم.. إن هذا الرجل لشخصية معقدة بالفعل تحتاج ان اسافر لزمنه لأعلم عنه الحقيقة من افواه ابناء شعبه وقتها..

انتهت الورقة الاخيرة من مذكرات جدي بتلك الكلمات.. لا يوجد ذكر لما رأه في تلك الرحلة..

اخذتني الصاعقه عند وصولي لتلك النقطة... جدي ذهب للماضي في اخر رحلة من رحلاته العديدة.. ولكنه لم يأت للحاضر.. فقط الساعه هي التي تمكنت من العودة مرة اخرى بسبب خطة الحماية..

فقط الساعه..

جدي حُبس في الماضي..

جدي لم يمت..

جدي مازال حيًا!!!!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16

لم احتمل هول المفاجأه تلك المرة، فقد فاق ذلك كل الحدود.. كل ما قرأته بتلك الورقات في كفة، و ما وصلت اليه الآن في كفة اخرى تمامًا..

أيعقل أن يظل جدي حيًا، وحيدًا في زمن آخر يسبق زمننا بمئات السنين؟!

و هل إذا صحت استنتاجاتي.. فما الخطوة القادمة؟؟ ماذا بيدي ان افعله لأعيده لحاضرنا؟

سيتطلب ذلك مني ان اعود لذلك الماضي لأنقذه مما يقابله من مصير غامض في ذلك العصر المظلم الذي وصفه جدي بورقته الاخيرة..

ارتميت على الفراش و في يدي اخر ورقة كتبها جدي.. انها تثبت و لا شك انه لم يعد من رحلته، كما أن وجود الساعه مع علمي بتفاصيل الخطة الاستثنائية لإنقاذ الاله.. كل ذلك يؤكد بالفعل صحة نظريتي..

جدي قد يكون حيًا و معزولًا بالماضي، و يجب على العودة لإنقاذه..

بعد ان اتخذت ذلك القرار، بدأت اجهز نفسي لما قد يحدث.. سأحتاج اولًا لشحن الآلة بالطاقة، و هذا ما لم اكن قادرًا عليه لولا الاستعانه بإرشادات جدي في مذكراته.. فلقد شرح الخطوات كاملةً و كيفية استعمال الادوات و الاجهزة الخاصة بذلك، و ارفق شرحه بالرسوم الموضحة لكل خطوة.. كأنك علمت بما سيحدث الآن يا جدي..

الآن امامي تسعه ايام بالتمام و الكمال لتكمل الآلة دورة شحنها.. بدأت في الاستعداد شخصيًا لتلك الرحلة.. حسبما قال جدي في مذكراته، لقد كانت المعلومات هي اللبنة الاساسية لأي رحلة يقوم بها.. اتجهت لمكتبة جدي الضخمة، محاولًا استخراج ما قد يلزمني من الكتب المتعلقة بفترة الحجاج بن يوسف الثقفي التاريخية..

خلال تلك الايام التسعه، لم يشغل بالى سوي القراءة ثم القراءة ثم القراءة.. و مع كل كلمة تطالها يدي و تقرأها عيناي، يزداد فزعي و خوفي من تلك الفترة المظلمة بالفعل..

ابو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي، القائد الاموي الذي استطاع بدهائه و مكره و خبرته الحربية ان يصل لتولي الامارة على مكة و المدينة و الطائف و العراق، ليبدأ في بسط نفوذه و سلطانه على تلك الاراضي و يخضعها لسيطرته بالرغم من وجود بعض القلاقل و الثورات بالعراق وقتها..

علمت لماذا اختار جدي تلك الفترة بالذات لتكون مقصدًا لرحله اخرى من رحلاته المكوكية في مجري الزمن، فالحجاج لم يكن بالشخصية السهلة، و كان زمنه بالفعل مثيرًا للدهشة و الفضول ايضًا.. فبالرغم من شهرته بالمبيد و السفاح والسفاك و التي اتفق عليها اغلب مؤرخين تاريخ المسلمين، إلا انه اشتهر ايضًا بتعظيمه للقرآن و عمل في بدايات شبابه كمحفظًا للقرآن و الحديث للفتية و الغلمان..

تأتي بعد ذلك حادثة رمي الكعبة بالمنجنيق اثناء حصاره لمكه وقتما حارب عبد الله بن الزبير بعدما طلب عبد الملك بن مروان ان يتم التخلص منه.. تلك الحادثه ذكرها اغلب المؤرخين واكدوها، بينما رد ابن تيميه على تلك الواقعه و دحضها -كما قرأت في مكتبه جدي - فذكر في احد كتبه قائلًا والحجاج بن يوسف كان معظما للكعبة لم يرمها بمنجنيق..

ظلت شخصية الحجاج مثيرة للجدل حتى بعد وفاته.. فقد قرأت في احد الكتب انه اثناء احتضاره بمرض في امعائه يشبه في اعراضه سرطان المعده، أنه دعا لله و قال: اللهم اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل.. بعد ذلك وجدت في احد كتب ابن كثير التي تمتلئ بها مكتبه جدي.. انه قال فيه كان فيه شهامة عظيمة وفي سيفه رهق، وكان يغضب غضب الملوك وكان جبارًا عنيدًا مقدامًا على سفك الدماء بأدني شبهة، وقد روي عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر، فإن كان قد تاب منها وأقلع عنها، وإلا فهو باق في عهدتهاولكن يخشي أنها رويت عنه بنوع من زيادة عليه.. و كان يكثر تلاوة القرآن و يتجنب المحارم، و لم يُشتهر عنه شئ من التلطخ بالفروج، و إن كان متسرعًا في سفك الدماء. فلا نكفر الحجاج، ولا نمدحه ولا نسبه ونبغضه في الله بسبب تعديه على بعض حدود الله و احكامه، وأمره الى الله..

اكتسب كراهيه الاتباع قبل الاعداء، فلقد كرهه الامويون أنفسهم لأفعاله الشنعاء كحرب ابن الزبير و قتله إياه بعد النصر في مكه بخلاف العديد من القرارات الدموية التي اتخذها وقت إمارته التي قاربت العشرين عامًا.. كما حقد عليه الخوارج لما فعله بهم من قتل و ذبح، و كرهه الشيعه ايضًا لعدم احترامه آل البيت، فنسجوا حوله الاساطير و الخوارق حتى قارنوه في وصفه بالشيطان نفسه..

اختتمت قراءاتي بالجمله التي ذكرها المؤرخ إبن سعد في كتابه الطبقات الكبير، فقال: أن الحجاج قال واصفًا نفسه: ما أعلم اليوم رجلًا على ظهر الأرض هو أجرأ على دم مني.. فأي رجل كان ذلك الحجاج بالفعل؟!

ادعو الله ان اجدك سالمًا يا جدي.. فقد اشتقت اليك بالفعل و قد حان وقت اللقاء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تتابعت الايام و انتهت المهلة المحددة لشحن الآلة، و حانت لحظة المعرفة.. الآن سأري اليقين بنفسي، لأدرك حقيقة مذكرات جدي.. أكانت روايةً صادقةً لأحداث غريبة مرت بجدي، ام كانت اوهام الشيخوخة التي تصيب كل من هرم و شاخ وقارب عمره نهايته مثل جدي رحمه الله..

راجعت قواعد السفر، و احتجت ما يقرب نصف يوم لتحقيق المعادله الصحيحة التي تمكنني من التوصل للرقم المسلسل الخاص بالثقب الدودي الذي سأعبر من خلاله.. استعنت بنصائح و معادلات جدي التي استخرجتها من مذكراته القيمة، و اكملت الباقي بمعلوماتي القليلة الناتجه عن بعض قراءاتي في مجال الفيزياء.. عسي أن اكون قد وفقت في ذلك، وإلا سوف اضيع في فضاء الزمكان و اغدو ترابًا منثورًا..

وقفت في مكتب جدي حاملًا الساعه، مستعدًا لتلك الرحلة الغريبة، قمت بضبط رقم الثقب الدودي و تأكدت من جاهزيتي لما سيحدث.. انتابني الخوف للحظة، و تمنيت لو أمكنني التراجع والاعتقاد بعبثية الفكرة و البعد عنها تمامًا.. و لكني تذكرت سبب سفري، أنا مسافر لزمن اخر لأنقذ جدي.. و لن اتواني عن تلك الفكرة ابدًا..

ضغطت زر النقل، لأشعر بذبذبات شديده حولي.. اغضمت عيني خوفًا مما قد يحدث ثم قررت ألا اغمضها.. سوف أشاهد ما يحدث.. مدفوعًا بفضول عارم، وجدت المكان من حولي و قد بدأ في التلاشي، و امامي الثقب الدودي ممتدًا في الفراغ يلتقمني كما التقم الحوت سيدنا يونس عليه السلام في احشائه، يتلاشي الصوت والضوء من حولي ليبدأ في الانضغاط بجانبي و نمر جميعًا من ذلك الثقب.. احساس صعب بالتلاشي و الوجود في ذات الوقت، و كأن الهواء قد تلاشي هو الآخر، فانطبقت رئتي و مُنع عنها التنفس حتى إشعار آخر..

فجأه تقترب مني بقعه الضوء.. اتجه اليها بتسارع شديد.. ثم لا شئ سوي الارتطام بعنف على أرضية رملية حارقة..

ازيز من الآلة ثم صمت رهيب..

لقد تم الانتقال بنجاح...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآف المطارق ترتطم برأسي من علٍ.. و كأنني على ظهر سفينه في مهب الريح، لم استطع الوقوف في البداية بسبب ذلك الغثيان الشنيع.. تقيأت ثم اغمضت عيني لدقائق معدوده حاولت فيها استكشاف موقع انتقالي.. الرمال الحارة تلهب يداي و ذراعي.. طقس حارق و الشمس تتوسط السماء.. إذن انا في وقت الظهيرة..

بالنسبة للمكان و الزمان، فأنا الآن في عصر الحجاج بن يوسف الثقفي، و بالتحديد في منتصف العام التسعين الهجري او العام 709 بما يوافقه في التأريخ الميلادي.. اختار جدي مدينه واسط التاريخية التي انشأها الحجاج على الضفة الغربية لنهر دجلة و جعلها عاصمه له في منطقة سواد العراق وقت أن كان واليا على تلك البلاد..

انتقلت بواسطة الثقب الدودي التالى للثقب الذي استخدمه جدي، اي انه متواجد بتلك المنطقة منذ ثلاث ايام.. اتمني من الله ألا يداهمني الوقت و استطيع العثور عليه حيًا قبل ان ينتهي وقتي انا ايضًا..

استطعت تمالك نفسي قليلًا.. وقفت منتصبًا بعد عناء شديد.. نظرت حولي فلم أر إلا رمال الصحراء تحيطني من جميع الجهات.. و في الافق تلوح مدينه واسط بأسوارها العالية و بوابتها الضخمة.. لزم الوصول الى تلك المدينه ما يقرب مسيرة النصف ساعه تحت شمس الصحراء المشتعله.. ارهقني قيظ الصحراء، فما أن وصلت الى بوابة المدينه حتى هرعت لأقرب نخلة استظل بها..

اثناء استظلالى بتلك النخلة اليابسة، أخذت في تأمل ما حولي.. مازلت مندهشًا مما اراه، فمنذ ما يقرب الساعه كنت بمنزلي بحي شبرا، و ها أنا الآن بالعراق في زمن قبل يسبق زمني بما يفوق الألف عام..

من حولي تنتشر الدكاكين و المباني القديمة.. أو الحديثة إن صح القول، فأنا الآن في حاضرهم و ليس بماضي.. الدواب تسير بوسط السوق يقودها رجال و غلمان بملابس قماشية غريبة و عمام مختلفة الالوان.. وعلى مسافة بعيده يتجول بعض الجنود بسيوفهم و خوذاتهم اللامعه تحت اشعه الشمس المتوهجة.. تلتقط أذني العديد من الجمل من حوارات بين البائعين و الزبائن، او بين السائرين تجاهي.. اللغه عربية لا شك في ذلك، ولكنها لهجه مختلفة تمامًا عن لهجاتنا المعاصرة، بل إنها تختلف قليلًا عن لهجات اهل الشام و العراق في وقتنا هذا.. لهجات قديمة تمامًا.. ولكني استطعت ادراكها بصعوبه.. فليوفقني الله في ذلك وإلا سيكون الموت هو نصيبي..

بالطبع جذب اختلاف هيئتي و ملابسي انتباه جميع من حولي، و بالرغم من حذري و ارتدائي لملابس بسيطة حاولت ألا اظهر فيها الفرق الشاسع بين جودة ازيائنا وجوده ازياء الماضي، إلا انني مازلت غريبًا عنهم بملابسي تلك..

بعد ان استرحت قليلًا، بدأت في جولة البحث مسابقًا للزمن لكي اجد جدي خلال مهلة الستين ساعه المحددة لي قبل ان اعود لحاضرنا.. سألت احد الباعه إذا شاهد شخصًا مختلفًا قليلًا خلال الايام السابقة.. اعتقد انه لم يفهم طلبي في البداية، ولكنه بعد ذلك اجابني بالنفي، تركته ذاهبًا بإتجاه احد الباعه المجاورين لدكانه.. و لكن الاجابة ظلت بالنفي.. استغرقت مني عمليه السؤال تلك ما يقرب من ساعتين.. لأعود بعدها الى النخلة التي اتكأت عليها جارًا خلفي اذيال الخيبة.. لقد فشلت في إيجاد جدي.. لم يراه احد، و لم استطع معرفة موضعه في ذلك الزمان.. بدأت في طرح الاسئلة على نفسي.. لماذا توقعت وجوده بتلك المدينه اساسًا؟؟ ربما قد جاء الى هنا و انتقل لمدينه اخرى خلال اليومين السابقين.. ولكنني ابعدت تلك الفكرة عن خاطري.. فإذا اراد الذهاب لمدينه اخرى لكان من الاولي توفيرًا للوقت ان ينتقل لتلك المدينه مباشرةً.. ثم جال بذهني سؤال اثار تفكيري تلك المرة.. لماذا اعتقدت ان جدي قد يثير الريبة بهيئته إذا انتقل لهذا الزمان؟ من المفترض انه بعد خبرته الشديده بالانتقال لأزمان اخرى، فقد استطاع التنكر بشكل ناجح كي يستطيع التكيف مع من حوله و بذلك يندمج بين المارة بدون ان يثير الشكوك..

اثارت تلك الفكرة هلعي، فأنا الآن لا ابحث عن شخص واحد يمكن تمييزه، بل إني ابحث عن شخص تتفق هيئته مع ما يقرب نصف اهل تلك المدينه.. تملكني اليأس و الحزن بعد ان توصلت لتلك النقطة.. ها أنا قد سافرت في الزمن، و لكنني فشلت في العثور على جدي الحبيب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ارتفع صوت الآذان من منتصف السوق معلنًا عن صلاة العصر.. قمت من موضعي و اتجهت الى المسجد الذي بناه الحجاج.. وصلت اليه فهالني عظمة بناء ذلك المسجد و ضخامه حجمه.. تأملت لبرهه روعه زخارفه و جمال رسومه.. قطع تأملي استعداد الناس للصلاة.. وقفت بجانبهم و اعلن الإمام الصلاة..

انتهينا من أداء الصلاة.. ليعقب الصلاة خطبة قصيرة تحدث فيها الامام قليلًا، و اختتمها بالدعاء للوالى الحجاج و للخليفة الوليد بن عبد الملك سدد الله خطواتهم و هداهم لما فيه خير الامه..

خرجت بعد ذلك من المسجد، و اثناء عبوري لبوابة المسجد، وجدت من يستوقفني و يضع يده على كتفي الايسر.. ارتعبت قليلًا و التفت لأنظر اليه.. وجدته رجلًا في الاربعين من عمره، طالت لحيته السوداء قليلًا حتى بداية صدره العريض، ويبدو من نظرات عينيه السوداوتين انه ممن يتصفون بإتقاد الذهن وحضوره.. ألقي على السلام ثم قال:

كم ادهشني مظهرك وتأملك في نقوش مسجدنا الجامع بذهول واضح منذ ان خطت قدماك ابواب المسجد.. أأنت غريبًا عن تلك المدينه؟

اجبته في قلق: نعم.. لقد جئت من بلاد بعيده كثيرًا عن مدينتكم..

ابتسم قائلًا: إذن يجب عليك أن تحل ضيفًا لدي.. فنحن نكرم من يأتي لمدينتنا، خاصةً إذا كان غريبًا مثلك لا دار له ولا موضع..

حاولت التملص و لكني تذكرت عادات العرب قديمًا، و سلوكهم و كرمهم الشديد مع الضيف، فلم استطع الجدال كثيرًا.. سرت بجانبه متخذين الطريق الى منزله بجوار سوق المدينه..

تملكني الفضول، فحاولت انتهاز تلك الفرصة و بدأت في الحوار معه.. اخبرني أنه المنصور بن مالك بن الحكم احد كبار تجار مدينه واسط لديه من البنين خمس و من البنات واحده.. يقطن بمنزله الذي بناه بنفسه بجانب السوق ليكون قريبًا من محل عمله.. يعمل المنصور في تجاره الاقمشة و الملابس و يشتري اجود انواع الحرير من بلاد الصين ليحيك منها اروع الاردية والجلابيب..

اخبرني كذلك بسبب تسمية مدينتهم باسم واسط.. فعندما جاء الحجاج العراق وجد ادارة كل من مدينتي البصرة والكوفة مفصولة عن بعضها، لذلك كان عليه ان ينتقل في اقامته بينهما، فرأى من حسن ادارتهما ان يتخذ مكانا وسطًا بين هاتين المدينتين يكون مقرًا لحكمه، يؤمن منه السيطرة الكاملة عليهما، ويشرف على اعمال سكانهما، فاختار موضع واسط وبني مدينة فيه، وبذلك اصبحت مدينة واسط مركزًا اداريًا للإشراف على ادارة البصرة والكوفة..

أثناء سيرنا بالطريق، شاهدت في الافق قصرًا عاليا ذو قبة خضراء تلمع بشده تحت ضوء الشمس الساطع، فسألته عن الحجاج، محاولًا معرفة حقيقته.. مستغلًا وجودي مع احد رعيته.. فتقطب جبيناه و بدأ في الحديث.. قال في البداية:

بدون الوالى الحجاج لما صرت أنا بتلك المنزلة الرفيعه بمدينه واسط، فهو من أنشأ مدينتنا و ارسي قوانينها كما ارسي النظام بمدن العراق بأسرها.. ولولا سياسته الحازمة في إقرار الأمن لما استطعنا ان نأمن على بضاعتنا او قوافلنا، فلقد امر حراسه بالضرب على أيدي اللصوص وقطاع الطرق، و حمي اهل مدينتنا من الاخطار و المنكرات، فأمر بقتل الكلاب الضالة، ومنع التبول أو التغوط في الأماكن العامة، ومنع بيع الخمور، وأمر بإهراق ما يوجد منها، وعندما قدم الى العراق لم يكن لأنهاره جسور فأمر ببنائها، وأنشأ عدة صهاريج بالقرب من البصرة لتخزين مياه الأمطار وتجميعها لتوفير مياه الشرب لأهل المواسم والقوافل، ودعوات المسافرين تلاحقه بالهناء و الثواب عند شربهم من ماء الابار التي حفرها بالمناطق النائية لتوفير الماء لكل مسافر..

ثم اردف قائلًا: و بالرغم من تدقيقه في اختيار ولاته وعماله، واهتمامه بأن يكونوا من ذوي القدرة والكفاءة، فيراقب أعمالهم، ويمنع تجاوزاتهم على الناس، إلا ان احد قاده حرسه، و المسمي بـشومان هو اسوأ من يمكنه تقلد ذلك المنصب، فشغله الشاغل هو تطبيق النظام بكل غلظة و عنف، و لا يأبه لعواقب تطبيق النظام، حتى إن اودي بحياة شخص مقابل ذلك.. و للاسف، فإن الحجاج يوافقه احيانًا كثيرة في افعاله تلك، بل إنه اطلق يده ليفعل ما يشاء مادامت افعاله ينتج عنها مزيدًا من الحزم و الانضباط.. الويل لمن يقع بقبضة شومان.. وقتها يتمني لو أنه ذهب للديماس مباشرةً بدلًا من مروره بـشومان..

قاطعت كلامه مستفسرًا عن الديماس الذي ذكره، فأجابني قائلًا: الديماس هو ذلك السجن الذي انشأه الحجاج بالجانب الغربي من مدينتنا.. هناك يحجز الخارجين على القانون و يتم استجوابهم بأبشع الطرق عقابًا لهم على سوء افعالهم، و كثيرًا ما يتم اعدام اغلبهم بساحة المدينه ليكونوا عبرة لم يعتبر..

ابتلعت ريقي بصعوبة، ثم سألني في اهتمام:

- وانت ايها الغريب.. لم اعلم ما اسمك او من اي بلاد بعيده جئتنا؟

لم اعلم كيف اجبه، فقلت في اقتضاب: انا الادهم بن عبد الرحمن.. جئتكم من مصر..

اجابني في بشاشه عندما سمعني انطق باسم مصر: مصر.. بلد حسن الموضع و حسن الاهل.. سكانها اطياب المعشر.. حدثني كيف حالكم الآن؟

شكرته على مدحه، و ابتسمت في داخلي متخيلًا رد فعله إزاء ما سأقوله إذا رويت له ما نحن فيه الآن.. فالتزمت الصمت قليلًا ثم اجبته: نحن في اطيب حال، و بالرغم من بعض القلاقل المتناوبة هنا و هناك، إلا اننا نتخطاها بإراده المولي – عز وجل -

أكد على كلامي و دعا لنا بالخير و البركات.. قررت أن اتأكد منه عن صحة ما روي عن قذف الكعبة بالمنجنيق بأوامر من الحجاج وقتما حاصر ابن الزبير.. و قبل أن اطرح عليه سؤالى دخل علينا طفل صغير باسم الوجه يبدو على ملامحه أنه احد ابناء المنصور.. بمجرد دخوله، ألقي علينا السلام و اتجه لوالده في شوق..

امسك به المنصور في حنان، و اجلسه على فخذه الايسر، و بادر بكلامه قائلًا: هذا ولدي يزيد.. اخر ابنائي و اقربهم لقلبي.. ثم أمره بمصافحتي.. فصافحني في خوف كأي طفل صغير في مثل سنه، ابتسمت اليه و اجبت المنصور قائلًا: بارك الله لك فيه و جعله ولدًا صالحًا كوالده..

شكرني المنصور ثم دعاني لتناول الطعام معه.. و بالفعل بعد دقائق، بدأ الخدم في اعداد مائدتنا بأشهي المأكولات و اطيب الاطعمة حلوة المذاق، استطعت تعرف بعض تلك الاطعمة و غاب عني معظمها، ولكني لا انكر طيب طعمها بالفعل..

بعد ان انتهينا من تناول الطعام.. تذكرت السبب الرئيسي لمجيئي لذلك الزمان، فبدأت في سؤال المنصور..

- لقد جئت هنا لأبحث عن جدي.. لقد اتاني خبر أنه جاء الى مدينتكم باليومين السابقين، ولكني اجهل موضعه الآن.. و لقد سألت جميع من قابلت عنه فجاءني الجواب بالسلب.. فهل يمكنك معاونتي في ايجاده؟

ابدي المنصور ترحابًا شديدًا، وبدأ في سؤالى عن هيئة جدي و مظهره، فأجبت جميع تساؤلاته.. طلب مني الانتظار للغد لكي يأتيني بالخبر اليقين.. اعتراني القلق، فتلك فترة طويلة للغاية بالنسبة لوقتي المحدود ولا يمكنني ان اضيع منه اكثر ما ضاع بالفعل..

اقترب المغيب، فوجدت المنصور و قد جاء ببعض الملابس التي طلب مني ان ارتديها على سبيل الهدية، لم استطع اثنائه عن تلك الفكرة، و اضطررت لقبولها في خجل شديد لكرمه الفائق.. بعد ان انتهيت من ارتداء تلك الملابس لم استطع التعرف على نفسي، فلقد صرت واحدًا من اهل المدينه بالفعل.. وجدت بعدها المنصور يطلب مني طلبًا غريبًا.. لقد طلب مني الخروج من المدينه الآن.. اندهشت لذلك ايما اندهاش، ولكنه اجابني في حرج شديد أن تلك هي التعليمات الأمنية للحجاج.. لا سماح لغريب بالمبيت بالمدينه ليلًا، وعلى اهل المدينه العوده ليلًا لداخل اسوار مدينتهم..

خرجت من المدينه بالفعل محملًا ببعض الزاد الذي اصر المنصور على اعطائي اياه اثناء مكوثي بالليل خارج المدينه.. افترشت الخيمة التي اعطانيها المنصور راجيًا الله الا تهاجمني دابة من دواب الصحراء اثناء استغراقي بالنوم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرت على تلك الليلة الباردة بصعوبة.. كانت تلك ليلتي الاولي التي ابيت بها في ربوع الصحراء القاحلة، و الادهي من ذلك انها كانت في زمان اخر لا يمت لحاضرنا بصلة.. استيقظت في الصباح فوجدت المدينه و قد فتحت ابوابها لإستقبال زائريها.. دخلت للمدينه فاتجهت ناحية السوق، ظللت ابحث عن دكان المنصور حتى وجدته بالفعل، و لكني وجدت بالدكان احد غلمانه، فسألت عن سيده المنصور فأجابني أنه مازال بمنزله..

تركت الدكان و اتجهت للمنزل لإيجاد المنصور و سؤاله عما فعله بشأن إيجاد جدي المفقود، و في طريقي وجدت على قارعه الطريق رجلًا بالغًا ينهر يزيد ابن المنصور و بدا و كأنه ينتوي ان ينهال عليه بالضرب.. انتابني الغضب فاتجهت بسرعه اليه لأوقفه عما يفعل.. امسكت به من تلابيبه، فبدا الغضب الشديد على وجهه الذميم، و بدأ في التلفظ بقبيح القول تجاهي.. قبل ان اسأله على سبب ما يفعل، حاول ان يلكمني في وجهي.. تفاديت لكمته في سرعه، فبادرني بلكمة اخرى نالت مني تلك المرة.. ارتميت جانبًا و قد سالت الدماء من انفي.. اتجهت له بكل غضب و بدأنا في تبادل الضربات.. تجمع المارة و بدأوا في الصياح.. فوجئت بعدها بالحراس و قد تدخلوا بيننا، و امسك اثنان بكل منا.. و من بعيد جاء رجل طويل القامة عريض الجبهه مرتديًا عمامه خضراء تغطي شعره الفاحم، ضخم كث اللحية و الشارب، و قد تمنطق خصره بحزام جلدي يتدلي منه سيفان على جانبيه.. و يرتدي زيًا يشبه زي هؤلاء الحراس الذين يحيطون بنا..

بمجرد وصوله ساد الصمت وانتشر الرعب بين الواقفين، بل إني لا اكذب ان قلت ان الرعب قد طال الحراس انفسهم.. نظر الينا ذلك الرجل في برود، و اقترب مني لتظهر اصاباتي واضحه امامه مختلطةً بدمائي التي انسالت من انفي و جبهتي وفمي..

فتح فمه ليخرج صوته الاجش قائلًا: من انت؟ و ماذا تفعل هنا؟

اجبته في رعب: انا غريب جئت هنا بحثًا عن احد افراد اسرتي.. و وجدت ذلك الرجل ينهال بالضرب على طفل صغير.. حاولت ايقافه فلكمني و اصابني بتلك الاصابات التي تراها بنفسك

صمت قليلًا.. ثم اتجه للشخص الاخر و سأله نفس السؤال.. فأجاب الاخر قائلًا:

ذلك الطفل اراد اختطاف نعلى الذي تركته بجانبي، فوددت أن اؤدب ذلك الشيطان الصغير على فعلته تلك..

اكمل الرجل الضخم نظرته البارده تجاهنا.. ثم اردف بجمله واحده..

اذهبوا بهم الى الديماس.. لا اسمح لأي انفلات او خروج عن النظام ان يستشري في ارجاء مدينتنا.. ثم اكمل في غلظة: فلتعلم ايها الغريب ان سيدي شومان سيستمتع بلقائك ايما استمتاع.. ثم ابتسم في جذل وحشي..

جاءت تلك الجمله لتنهي ما تبقي في من وعي حاولت الحفاظ عليه بالرغم من اصاباتي الشديده.. فسقطت مغشيًا على رمال مدينه واسط.. ليجرني الحراس الى مصير مجهول في زنازين الديماس..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17

ظل وعيي مستمرًا في الهروب من قدرتي على امساكه و الاحتفاظ به، مع كل متر اعبره تجاه خيول الحراس الذين جروني بكل غلظه.. يتثاقل جفناي و اغمض عيناي لثوان ثم افتحها فأجد نفسي مازلت في قبضة هؤلاء الحراس.. وصلنا للخيول فأمسكت بي ايدي الحراس ليرفعوني و يلقوا بي على صهوة احد الجياد..

بدأت تلك المجموعه في التحرك صوب سجن الديماس، و ما إن ظهر امام ناظري، شعرت بالرهبة الشديده تجتاحني و تحركني بعنف، فهببت في وهن محاولًا التملص من ذلك الحارس الذي امسك بي.. قمت بدفعه من على الجواد بكل ما اوتيت من قوة وقتها، فوقع مخلفًا سحابة صغيرة من الغبار الذي تناثر من موضع وقوعه..

امسكت بلجام الفرس الذي صرت انا الآن قائده الوحيد.. لم أدر ما افعل فأنا لست خبير بالفروسية كي اتمكن من السيطرة على ذلك الجواد.. ألهمني خوفي وقتها أن اجذب اللجام بشده لعله ينبه الجواد و يحمله على الهرب، ولكن أتت النتيجة عكسية فارتفعت اقدامه في الهواء عاليا و القي بي من فوق ظهره في عنف..

بمجرد ارتطامي بالارض حاولت ان افر من قبضة الحراس.. ولكنهم اجادوا احاطتي بالجياد و اغلقوا على جميع منافذ الهروب بفعلتهم تلك.. فسكنت على الرمال منتظرًا بطشهم بي و الذي لم يطل انتظاري له، فلقد سارعوا بالامساك بي وبدءوا في ضربهم المبرح.. حتى فقدت الوعي مرة اخرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شاهدت نفسي في مكان لم اراه من قبل.. ارضه سوداء كاحلة، و قد انغرست بها الاوتاد التي تربطني بقيود حديدية من عنقي ويداي.. السماء حمراء قانية كالدماء الطازجة.. و سحب زرقاء مكفهرة تلوح في الافق.. التفت الى يميني وجدته هناك.. بصراخه المستمر و انفعالاته الثائرة.. إنه الهر ادولف هتلر شخصيًا.. لم أتبين ما يقوله وقتها، ولكنه نظر لي بعيون نارية و اكمل خطابه الذي اتضح انه منصب على بالكامل..

انا احلم.. بالتأكيد انا احلم.. ماذلك المكان ومتي اخرج منه.. وعلى بعد امتار قريبة، وجدت جدي جمال يقترب مني في هدوء.. حاولت ان اسرع اليه لأعود الى كنفه مرة اخرى مثلما تعودت سابقًا، لكن منعتني قيودي من ذلك.. صرخت في قوة مناديًا إياه.. فابتسم و لم يرد.. استمر ندائي، فلم يجيبه إلا باستدارته و ابتعاده عني بنفس الهدوء الذي جاء به..

تملكني اليأس.. و حانت مني التفاته لـهتلر الذي مازال في خطابه العنيف، ثم وجدته قد صمت فجأه، و نظر في برود الى تلك السماء الحمراء.. فتجمعت السحب الزرقاء في سرعه غريبة، و بدأت قطرات من المطر الاسود تقطر من جوانب السماء..

هالني المنظر، و قطرات المطر تبدأ في الانحدار على جبهتي لتكمل طريقها الي وجهي و تتسلل بعضها الى شفتاي.. مذاقها كريه للغاية، ابصقها في عنف محاولًا ابعادها عن فمي.. ولكن الامطار تزيد من هطولها حتى صارت كالشلال المنهمر بلا رادع..

استفقت فجأه على سطل من الماء و قد أُلقي على رأسي.. هززت رأسي في عنف و فتحت عيناي في ضعف لأبدأ في تبين ما حولي..

رفعت كفي لأمسح قطرات الماء المنسدله على وجهي، فأوقفني ذلك القيد الذي ربط معصمي معًا.. حاولت فتح عيني عن اخرهم لتوضيح رؤيتي.. وجدت نفسي راكعًا على ركبتي وسط ثلة من الحراس الذين احاطوا بي، و على رأسهم ذلك القائد ذو العمامة الخضراء الذي بدأ في التحدث قائلًا:

- تأدب ايها الغريب، فأنت في حضرة القائد شومان..

ثم تحرك في ادب و خضوع مستقبلًا شومان الذي ظهر من خلفه ليستقبلني.. نظرت اليه في البدايه فوجدت رجلًا ضخمًا يماثل ذو العمامة الخضراء في ضخامته، و إن كان اشد بأسًا و اكثر غلظة، جبهته ضيقة، افطس الانف، ينسدل شاربه على جانبي وجهه ليتقابل مع لحيته المشعثة مكونةً ما يشبه كومة القش المحيطه بفمه الغليظ..

سأل شومان قائد الحرس في اقتضاب:

- من هذا؟

اجابه قائد الحرس في احترام بالغ:

- هذا احد الغرباء من خارج مدينتنا.. امسكنا به محاولًا اثارة الشغب بجانب السوق الكبير، ووقت أن قبضنا عليه، حاول الهروب و تعدي على احد جنودك المساكين..

صمت شومان لوهلة.. ثم قال:

- ألقوا به في اقذر زنازين سجننا.. حيث يقبع اكثر المجرمين خسة و نذالة.. فهذا جزاء من يخالف نظام والينا العظيم الذي ارساه في ربوع ولايته، و يهاجم جنوده المخلصين.. و في المساء انظر بشأنه و اقضي عقوبته..

ثم اكمل: و اعدموا ذلك الجندي الذي سمح لذلك الغريب ان يعتدي عليه.. فلا مكان عندي لضعيف..

ابتلع قائد الحرس ريقه بصعوبة، بينما نظرت الى ذلك الجندي الذي اوقعته عن صهوة الجواد، فوجدت وجهه قد صار مثل الشمع في بياضه.. ارعبتني فكرة اعدام ذلك الجندي بسببي، فصرخت مناديًا شومان الذي همّ بالرحيل:

- انتظر.. لم يكن خطأه.. انا من دفعه من على الجواد..

التفت شومان الى في عنف.. ثم اقترب تجاهي حتى دنا وجهه من وجهي بشدة.. ثم همس قائلًا:

- إذن، يجب اعدامه.. فلقد جعل نفسه لقمة سائغه لك..

ثم انهي جملته بلكمه قوية كالها لوجهي افقدتني الوعي للمرة الألف في ذلك اليوم المشئوم، لتظلم الدنيا من حولي مرة اخرى..

استيقظت فزعًا لأجد نفسي مكومًا بجانب جدران احدي الزنازين الضيقة للغاية، حتى إنني وجدت موضع جلوسي بصعوبة.. قمت ببطء من مرقدي و نظرت حولي فلم اجد سوي بعض الرجال و قد افترش اغلبهم ارض الزنزانة الرطبة.. المكان من حولي شديد الظلمة، سيّء التهوية، و بعد ان اتضحت لي الرؤية، استطعت تبين سبعه رجال، اختلفت اعمارهم و تفاوتت هيئاتهم و لكن جمعهم الضعف و الهزال و سوء الصحة و الحال..

اتجه الى احدهم، و بدا على هيئته الكهولة الشديدة.. سعل ثم سألني بعدها:

- من انت؟

اجبته في حذر: غريب.. أُسرت ظلمًا.. و من انت؟ و اين انا الآن؟

صمت لبرهة.. ثم اجاب في اسي:

- كلنا أُسرنا ظلمًا.. أنا أبي عبيد بن يوسف.. كنت منذ سنة اعمل اجيرًا لدي احد التجار بالسوق، و حدث أن لصًا سرق بعض من بضاعه سيدي، فأودعت السجن ظلمًا.. اقسم لك بالله اني لم اسرق تلك البضاعه.. و لم يرحم حراس الحجاج توسلاتي وقتها، فألقوا بي في غياهب السجن هنا و ها أنا حتى الآن اسير تلك الجدران..

ثم نظر الى باقي المساجين الذي جلس بعضهم و نام البعض الاخر، ثم اشار لشاب جالس و قال:

- اما هؤلاء فقد أتوا من بعدي.. ذاك الفتي هناك.. جاءوا به من اسبوع بسبب معارضته احد احكام الحجاج فألقي به هنا، و قد يتم إعدامه خلال الايام القادمة..

اجبته في فزع: اعدامه؟!

رد على أبو عبيد: بلي.. فعقوبة الخروج على الحاكم هنا هي الاعدام.. و لكن ذلك الفتي تأخرت عقوبته لحين انتظار عودة شومان قائد الحرس بعد عودته الى واسط..

اخبرته بأن شومان قد جاء بالفعل، فقد رأيته بنفسي منذ قليل.. فظهر الحزن على وجه أبي عبيد.. ثم تمتم في خفوت:

- إذن فتلك نهاية ذاك الفتي.. يا للخسارة!

و استرسل في حديثه قائلًا:

- إن الحجاج لشيطان مريد عليه لعائن الرحمن.. قاسي القلب، بل إنه لا قلب له.. رحمتك يا الله.. منذ أن تولي الولاية، و دماء المسلمين تُسفك بيديه النجسة.. تخطت أعداد ضحاياه الآلاف و ملأ ارجاء البلاد بجوره و ظلمه.. لقد ارسي حكمه بالشده و

الغلظة، فلم يتورع عن سفك الدماء لتثبيت دعائم حكمه لنفسه و لأبنائه من بعده.. لا يمكنني انكار بناءه للمدن و امدادها بالخدمات، ولكن في المقابل، امتلأت سجونه بالمظلومين، و اريقت انهار الدماء في عهده..

ذلك الديماس الذي نقبع بداخله الآن.. لهو اكبر دليل على ظلم الحجاج و شدته.. لقد سمعت الاهوال عنه قبل دخولي هنا.. فقد قيل أن به الآلاف من الرجال و النساء اغلبهم سُجن ظلمًا او بسبب أمور تافهة..

إعدام الأسري هنا بقطع الرأس أو بالصلب بعد القتل، ولكن الحجاج اختص الصلب لأكبر معارضيه في الحكم و السلطة.. و بخلاف تفنن الحجاج في ابتكار طرق تعذيب اسراه، فلقد تفنن ايضًا في معامله الاسري داخل الديماس.. ففي بعض الزنازين تجد بعض الجماعات من المسجونين و قد اقترنوا في سلسلة واحدة، فإذا قاموا، قاموا معًا، وإذا قعدوا، قعدوا معًا، و بالرغم من صغر محبسهم، ففيه يأكلون، وفيه يتغوطون، وفيه يصلون، و منذ اشهر معدودات، القي الحجاج بأحد معارضيه بزنزانه مجاورة لنا، وبعدها بأيام أرسل عليه الكلاب تنهشه حتى مات.. ولما مات رمي بجثته في الخندق ولم يجرأ أحد أن يدفنه حتى مزّقته الكلاب..

صمت أبي عبيد قليلًا و بدأ في البكاء حتى سالت دموعه الى لحيته البيضاء الكثة، ثم قال وسط بكائه:

- تلك الليلة سمعنا جميعًا اصوات الكلاب المفترسة تقطع و تمزق جثة ذلك الرجل، و صياحه المتواصل حتى سكت.. سكت تمامًا.. يا الله!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدأت في الارتعاش لما سمعته.. كيف يفعل الانسان ذلك بأخيه الانسان.. كيف يصل الحاكم لتلك الدرجة من الظلم و القسوة ضد رعيته.. لم ينص الإسلام على ذلك أبدًا، و علمت الآن بالفعل صدق الاقاويل التي تناثرت عن ظلم الحجاج وجبروته..

التفت الى أبي عبيد و استفسر مني عن حال المدينة بالخارج.. فأجبته آسفًا:

- إنني غريب عن هنا.. جئت منذ يوم و نصف، و لا اعلم الكثير عن واسط.. ولكن مما رأيته، فإن المدينه بحال جيده.. سُوقها عامر بالبضائع و اهلها كثر و مسجدها عامر بالمصلين..

ابتسم أبي عبيد لأول مرة.. ثم ردّ في هدوء:

- لا يغرنك حسن المظهر.. فقد يبدو علينا السعاده و الهناء و رواج الحال، لكنك لا تعلم ما يفعله الحجاج بنا.. لقد قتل من شبابنا ونسائنا الكثير بعد أن اعترض بعضهم على ولايته.. و أمر بقطع رقاب بعض الشيعه الذين جاءوا في رحلة تجارة منذ سنتين.. منذ تلك الحادثة و لم تخط قدم شيعي ارض مدينتنا..

و تلك الدكاكين التي تراها بالسوق.. اغلبها مضطر لبيع بضاعته و إن خسر بسببها، فالضرائب الباهظة التي فرضها الحجاج جعلت بعض التجار في حاجة لجمع مال الضريبة اكثر من حاجته لجمع رزقه.. أما ذلك المسجد العامر بالمصلين، فإمامه

من أكبر المنافقين للحجاج.. يسدل غطاء الدين على خطايا الحجاج، و يصوره في صورة الحاكم المؤمن الزاهد الحافظ لكتاب الله.. إن تلك الاقوال التي تُذكر في حق الحجاج حول زهده و تقاه إنما هي كذب و تضليل، فكيف يفعل تلك الفظائع رجلًا مسلمًا بحق.. لم يأمرنا النبي المصطفي عليه صلوات الله وسلامه بذلك..

استمر أبي عبيد في سرد فظائع الحجاج، و أنا غير مصدق لكميه الظلم التي قد يصل اليها الحاكم تجاه رعاياه.. يا الله!!

بعد ان انتهت حكايات الحجاج.. التقط ابي عبيد من جانبه كسرة خبز قد اسودت اطرافها، وبدأ في ازدرادها في صمت.. بدأت انا في الحديث و اخبرته سبب مجيئي لمدينة واسط، ولكنني لم اشر من بعيد او قريب لموضوع آلة الزمن، فبالرغم من حكمة ذلك الكهل و لكني لم استطع افشاء ذلك السر مهما حدث..

اهتم أبي عبيد بحديثي بشده.. و عندما ذكرت له أن جدي قد جاء للمدينه خلال الايام السابقة، ظهر الانفعال واضحًا على وجهه.. سألته في دهشة عن سبب انفعاله.. فكانت اجابته التي القت بقلبي خارج ضلوعي:

- لقد اتي شيخًا غريبًا منذ ايام الى السجن.. و لقد ألقاه الحراس وقتها وقد سالت الدماء من وجهه و ساقه.. و خلال الفترة السابقة لم نسمع له صوتًا.. فاعتقدنا انه ابكمًا من كثرة صمته.. يتلقي طعامه في سكون و يظل قابعًا في طرف الزنزانه طوال اليوم..

ثم اشار بإصبعه لأحد المساجين.. وقال: هاهو ذا..

اتجهت لذلك السجين بخطوات مرتعشة.. أيعقل أن اقابل جدي اخيرًا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

18

اقتربت بكل لهفة و ترقب تجاه ذلك السجين النائم بعيدًا عن باقي رفاقه السجناء.. ثيابه رثة للغاية و تكسو الدماء رقعه كبيرة من تلك الثياب، فاستحال لونها للأحمر الداكن بعدما كانت بيضاء كما تبدو..

مددت اصابعي المرتعشة تجاهه، و مسست رأسه في رفق.. تحرك السجين مرتعبًا، و لكنه ما إن التفت الي، ومن النظرة الاولي.. تأكدت ظنوني.. تلك العيون الداكنه.. اميزها من بين الآف العيون، و إن حلّ فيها الرعب و التعب بدلًا من الحنان والسعاده.. إنه جدي!!

همست غير مصدقًا.. جدي!! أنا ادهم....

اتسعت عيناه و تمتمت شفتاه المتشققتان باسمي في صمت.. ثم احتضنني في قوة و دموعنا تسيل بلا انقطاع.. تحسس جدي بكفه وجهي و بدأت ملامح الفرح و السعاده تعود للظهور على وجهه.. ذلك الوجه الذي لم يتغير فيه سوي بعض التجاعيد التي حفرها الزمن بكل قسوه.. و بالرغم منها فإنه ظل محتفظًا بإصراره و عزيمته التي لا تكلّ..

ظللنا في ذلك التلاحم لدقائق عديده، تمتم فيها جدي ببعض الكلمات المختلطة التي لم استطع تبيانها، ولكنني علمت مقصدها.. إنه الشوق الذي يجتاح كلينا.. اغتراب يفوق العشر سنوات.. سدود و حواجز من الظلم بُنيت بيننا فمنعت كل منا من رؤية الآخر.. كل ذلك انتهي في لحظة على ارض زنزانه بارده في زمن يسبقنا بمئات السنين..

بدأ جسد جدي المرتجف في الهدوء، و إن كان مازال مصدومًا من تواجدي في ذلك الزمان و المكان.. و لكني أعلم بما يفكر الآن.. بالتأكيد لقد توصل عقله لكل ما حدث.. و هذا ما تأكدت منه بالفعل عندما بدأ بالتحدث بأولي كلماته لي منذ عشر سنوات..

- أدهم.. كنت عارف انك هتوصل للسر، و تعرف كل اللي حصل لي.. لكن يا ريتك كنت رحت اي زمن تاني غير الزمن دا..

اجبته و اللهفة تجتاحني للحديث معه كالأيام الخوالي:

- أستاذ عبد الله جاب الصندوق و قريت فيه المذكرات.. و منها عرفت كل حاجة.. و لقيت بعدها الساعه بالصدفة، و وقتها قررت ارجع لك تاني.. بس ايه اللي حصل لك هنا يا جدي؟

هز جدي رأسه في بطء.. ثم قال:

- هاحكيلك يا ادهم..

اعتدل جدي في مجلسه، و إن ظللنا في مبعد نسبي عن بقية المساجين الذين انشغل اغلبهم عنا بالنوم او بالدعاء بفك كربته او بالغرق في مستنقع يأسه الخاص..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدأ جدي في الهمس قائلًا:

- اكيد انتا قريت في مذكراتي اني عملت رحلات كتير في مجري الزمن.. و عرفت اللي حصل لي فيها..

اجبته بهز رأسي و اردفت: انا انتهت قرايتي عند سفرك لزمن هتلر، و بعدها حصل لي ظروف منعتني من اكمال القراية، لحد ما لقيت الساعه بالصدفة، ساعتها قريت اخر رحلة انتا عملتها لزمن الحجاج، و منها وصلتلك هنا..

نظر جدي الى سقف الزنزانه الحالكة في اسي، ثم اكمل:

- للاسف.. أنا السبب في مجيئك هنا.. كان لازم احرق مذكراتي دي.. كان لازم انا بس اللي اتوه في الماضي، انتا كنت لازم تعيش حياتك..

انا بعد ما رجعت من زمن هتلر، سافرت كتير و كتير.. كنت كل حوالى شهر او شهرين اسافر لزمن مختلف عن التاني.. حبي للتاريخ امتزج مع القدرات الرهيبة اللي سمحت لي بيها الآلة.. انك تقرا عن دخول الاسكندر الاكبر لمصر حاجة، و انك تكون واقف وسط الجماهير الغفيرة اللي استقبلته حاجة تانية..

إنك تسمع مقطوعه لبيتهوفن في الراديو حاجة، و إنك تسمعها منه شخصيًا في حفل كبير مليان شخصيات معروفة وقتها حاجة تانية خالص..

إنك تقرأ في كتب المؤرخين المسلمين عن عظمة مملكة العرب في الاندلس حاجة، و انك تتفسح في جناين غرناطه و قرطبه و ملقة حاجة تانية خالص..

التاريخ بالنسبة لي كان هدف مش غاية.. أنا مسافرتش في الزمن علشان اسيطر على العالم، ولا علشان اجمع ثروات و تحف لا تقدر بثمن في حاضرنا.. انا شفت كل اللي افتكر نفسه قادر على انه يسيطر على الدنيا، وفي الاخر كان كومة تراب.. الاسكندر، نابليون، هتلر.. و كتير و كتير من الزعماء.. كلهم في الاخر نهايتهم واحده، يا اما الفشل.. يا اما الموت زي بقية البشر و ضياع مملكته اللي تعب فيها من بعده..

مع كل رحلة عملتها.. اتأكدت من خطر تغيير الزمن، الماضي اتسمي كده عشان مضي.. راح.. مينفعش يرجع تاني.. و إن كان سفري ليه دا يعتبر رجوع، لكنه رجوع مقيد بقوانين صارمة مفيهاش هزار.. أي تغيير ولو بسيط، بيبقي ليه اثار جانبية خطيرة ممكن تحطم مجري الزمن تمامًا..

قبل ما اوصل هنا من اسبوع.. كان المفروض اني مسافر للجزائر في زيارة لواحد زميلي من ايام زمان، و بالمرة اسافر بشكل طبيعي بدل سفري في الزمن.. كان بقالى فترة بقرا عن زمن الحجاج بن يوسف الثقفي، و شاغلني تاريخه جدًا.. و

بالرغم من رحلاتي الكتيرة لتاريخ الحكام العرب و الدول المتتابعه بعد عصر الخلافة، لكني مسافرتش قبل كده لعصر الحجاج.. فقررت اسافر في رحلة سريعه، و ارجع بعدها للتحضير لرحلة الجزائر..

لكن زي مانتا شايف كده، طبعًا الباخرة راحت عليا، و فضلت محبوس هنا..

اجبته مبتسمًا: الحمد لله.. الباخرة غرقت و محدش نجي منها.. علشان كده استاذ عبد الله افتكرك توفيت.. و قام جايب لي دفتر مذكراتك بالصندوق المقفول..

اندهش جدي من ذلك الخبر.. و تمتم في خفوت: وعسي ان تكرهوا شيئًا و هو خير لكم... سبحان الله..

ثم اكمل في خوف: لكن شكلي كده مكتوبلي الموت.. بدل الموت في البحر، هاموت على ايد سياف الحجاج

سألت جدي عن سبب دخوله السجن.. فطأطأ رأسه و بدأ في سرد قصة مجيئه لتلك الزنزانه المظلمة..

- انا جيت هنا زي ما قلتلك علشان اشوف زمن الحجاج، كنت عاوز اعرف حقيقته.. هل هو طاغية زي ما اغلب كتب التاريخ صورته.. ولا حاكم عادل قدر يبني دولة محكمة قوية و ثابته لسنين طويلة.. اخترت مدينه واسط اللي بناها بنفسه وخلاها عاصمه لولايته.. وصلت في مكان قريب خارج اسوار المدينه، و دخلت وسط الناس و عشت وسطهم لمده يومين من غير اي مشاكل.. عرفت فعلًا حقيقة الحجاج.. عرفت ظلمه و استبداده.. و بالرغم من انه قدر يبني دولة فعلًا قوية.. لكنها كانت من جواها هشة للغاية.. قوة الدولة مش في امنها او عملها او تجارتها و صناعتها.. قوة الدولة في شعبها.. و الشعب كان كاره الحجاج.. و اغلب مؤيديه من التجار المستغلين لأوضاع الدولة او وزرائه و حاشيته و جنده.. الحجاج كان دايمًا خايف من المؤامرات، كان دايمًا بيفرض الامن بالقوة.. لكنه مقدرش في النهاية انه يمنع قضاء الله.. مات بمرض في معدته، زي اي انسان عادي.. و من بعدها بدأت دولته في التساقط..

بعد ما عرفت الحقيقة خلال اليومين و نص اللي عشتهم في الزمن دا من غير اي مشاكل.. قررت ارجع قبل ما يحصل اي شئ يأثر عليا.. خرجت من بوابة المدينه و رجعت للمكان اللي اتنقلت منه للزمن دا.. بس بسبب انشغالى في تشغيل الالة.. مأخدتش بالى من الجنود اللي كانوا راجعين خلال المنطقة دي للمدينه تاني..

طبعًا مشهد فتح البوابة الزمنية دا بالنسبة لأي حد من الزمن دا لازم يكون مرعب.. قبل ما الحق اعبر من الثقب.. لقيت سهم انغرس في رجلي اليمين.. ارتميت على الارض من الالم، و اتحدفت الساعه من ايدي للرمل.. هجم عليا الجنود بسرعه، و قدروا يسيطروا عليا بكل سهولة.. لكن الحمد لله مفيش حد فيهم اخد باله من الساعه اللي غرقت وسط الرمل.. افتكروني ساحر، و في الزمن دا زي اغلب الازمنة،

السحر فيها مهنة محرمة بيُعاقب عليها اي قانون.. فما بالك بقانون مستبد بيضاعف فيه العقاب على اي جاني..

و بكده اترميت في اسوأ زنازين سجن الديماس.. و منتظر عقوبتي اللي هيحددها شومان مدير السجن و احد كبار مساعدين الحجاج شخصيًا..

قاطعته في قلق: شومان رجع تاني للسجن من سفره..

صمت جدي للحظات.. ثم قال في يأس:

- تبقي دي نهايتنا.. الحجاج اعدم الالاف لأسباب اتفه من اسبابنا دي..

ثم سألني جدي عن كيفية وصولي للسجن، فأجبته و سردت ما حدث منذ أن جئت للمدينه، الى ان وصلت للسجن..

سألني في لهفة:

- الساعه لسه معاك؟

هززت رأسي مؤكدًا.. و اخرجتها من احد جيوب سترتي الداخلية.. بمجرد خروجها التمعت بضوء خافت سقط عليها من خارج الزنزانه.. ارتعب جدي و دسها بملابسي مرة اخرى.. لم ندرِ هل رأى احد غيرنا ذلك اللمعان.. تلفتنا حولنا في خوف فلم نجد احدًا يتابعنا.. كلٍ في عالمه الخاص هنا..

اشرق وجه جدي بمجرد رؤيته للساعه مرة اخرى.. و اردف:

- تمام يا ادهم.. حافظ عليها.. و ربنا يفرجها يمكن نقدر نطلع من هنا.. او نفضل منتظرين الساعه تبدأ تفعل خطة حمايتها بنفسها وتنقلنا للحاضر.. انتا وصلت هنا من كام ساعه؟

لم احسب الوقت بالفعل.. و لكني حاولت استنتاجه.. لقد قبعت بالمدينه حوالى يومًا و بضع ساعات، ثم القوا بي هنا، و مكثت هنا ايضًا بضع ساعات.. إذن مجموع ما قضيته بذلك الزمن يقترب من اتمام اليومين خلال سويعات قليلة..

اجبت جدي في خفوت: حوالى حاجة و تلاتين ساعه... لسه كتير على فترة الستين ساعه..

ردّ جدي في قلق: لأ.. مفيش حاجة اسمها كتير.. الوقت بيمر.. و كل دقيقة بتعدي بتقربنا اكتر و اكتر من الرجوع.. اهم حاجة نفضل عايشين و محافظين على الساعه لحد ما ييجي الوقت..

تمتمت بالدعاء... فليحفظنا الله برحمته..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرت الساعات في بطء، و مازال السمر بيني و بين جدي الحبيب مستمرًا.. حتى بدأ الارهاق في بسط قبضته على كلينا، فخلدنا للنوم.. أو على الاقل محاولة النوم..

استفقت على ملمس يد خائفة تتحسس ملابسي، و تحاول الوصول لجيوب ردائي.. تبًا.. لقد رأى احد السجناء الساعه وقت أن اخرجتها لجدي.. و هاهو الآن يحاول سرقتها مني..

تظاهرت بالنوم.. ربما يفشل في الوصول الى الساعه، و حاولت ان اضغط بذراعي بشكل طبيعي على مكمن الساعه لأمنع ذلك اللص من امساكها.. بعدها بلحظات.. بدأت يداه في معرفة طريق الساعه بالفعل.. هنا لم استطع اكمال تظاهري بالنوم.. فقمت مسرعًا ممسكًا بذلك السجين من ملابسه، و كلت له لكمه ادمت فمه الذي يبس من طول فترة سجنه..

استيقظ جدي وجلًا بعد احساسه بالجلبه الناتجه عما حدث، و كذلك فعل اغلب السجناء الذي خرج كل منهم من قوقعته ليجد سجينين يتعاركا بداخل تلك الزنزانه الضيقة.. بدأ كل منا في اشباع الاخر بلكماته، و حاول بعض السجناء بمعاونه جدي أن يفضا ذلك العراك، فهتف ذلك السجين في قوة:

- هؤلاء الغرباء بحوذتهم الذهب.. لقد رأيته بنفسي..

بهت وجهي انا و جدي.. و بدأنا في القلق بعدما رأينا بعض السجناء وقد ظهرت على وجوههم امارات الجشع واضحة تمامًا.. حاولت ان ابتعد انا و جدي عنهم بأجسادنا، متخذين وضعًا دفاعيًا يائسًا لن يفيد امام هولاء الوحوش الادمية التي عززت مرارة الاسر بشاعتهم و عنفهم..

انقذنا وقتها من ذلك الموقف، باب الزنزانه الذي انفتح على مصراعه بقوة، ليدخل حارسان من حراس الحجاج ليذيقا كل من بالزنزانه طعم عصيهم و قبضاتهم.. ثم دلف بعدهم قائدهم ذو العمامة الخضراء و سأل عن سبب الجلبة.. فأشار احد الحراس تجاهي انا و جدي و ذلك اللص الذي حاول سرقة الساعه.. فأصدر القائد اوامره بجلب ثلاثتنا للقاء شومان..

اقتادنا الحراس بكل قسوه خلال ممرات و سراديب ضيقة، حتى وصلنا في النهاية لباب خشبي كان مدخلنا الى غرفة شومان التي امتلأت بالسيوف و عديد من ادوات التعذيب الذي اقشعر بدني لمجرد رؤياها..

نظر الينا شومان في غضب مستمعًا لكلمات ذي العمامة الخضراء الذي سرد ما فعلناه و بالغ في بعض الافعال.. بعد ان انتهي من كلامه.. تألقت عينا شومان في جذل، ثم قال بكل هدوء:

- لقد حان وقتكم ايها المجرمون.. إن السياف ينتظر رقابكم على احر من الجمر، و كم يشتاق نصل المهند للارتواء بدمائكم الفاسدة..

ثم انهي كلماته بجمله جمدت الدم في عروقنا جميعًا..

- فلتأمروا السياف بالاستعداد.. فسيتم إعدام هؤلاء في الفجر بعد ساعات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

19

ألقي بنا الحراس تلك المرة بكل عنف - بعد ان كبلوا اقدامنا و ايدينا بالاغلال - في زنزانه جديدة أضيق بكثير من سابقتها.. ارتميت باكيًا على الارض ادعو الله ان ينجينا مما فيه، و ارتكن جدي برأسه على جدار الزنزانه في صمت، و دموعه الحارة تسيل على وجنتيه بينما ظل ذلك السجين الثالث منهمكًا في تمتمات غاضبه تعبر عن صدمته الشديدة لما حدث..

مرت الدقائق و كأنها ساعات طوال، و الساعات كالأيام.. و بين الحين و الاخر يتناهي لأسماعنا خطوات احد الحراس خارج الزنزانه، فترتعش قلوبنا قبل اقدامنا، و قد تخيل كل منا مصيره تحت نصل السيف.. لكن ننتبه لكذب ذلك الانذار، و أن تلك الاصوات ما هي إلا خطوات لحارس يتجول بين ارجاء السجن مراقبًا للزنازين..

غفا جدي و السجين قليلًا بعد ساعات طالت و استدامت.. و ظللت أنا في وحدتي متأملًا ما حدث.. منذ البداية و حتى ما وصلت اليه.. تتابعت مشاهد من حياتي امام ناظري، تارة مع جدي في فترة طفولتي، و التارة الاخرى منصتًا لكلمات اروي التي تنساب من شفتيها الرقيقتين.. اشاهد نفسي مع اصدقائي في تلك الليلة السعيده التي قابلتهم بها، و اتذكر كلمات جدي التي دونها بين طيات مذكراته فأتت بي الى هنا.. الثقب الدودي يمتصني و يرسلني لزمن آخر و ارض اخرى.. ذلك الثقب الذي لن اراه مرة اخرى.. ماذا لو انتظر الزمن بضع ساعات؟؟ اما كنت انا و جدي بمنزلنا القديم الآن؟ بضع ساعات فقط تفصلنا عن موعد فتح البوابة الاحتياطية التي ستنقلنا لحاضرنا.. و لكنها سخرية القدر، نسافر في الزمن لمئات السنوات، و نعجز عن توفير ساعات قد تبعدنا عن قبضة الموت المحتم.. سبحان الله..

ظللت في تأملاتي و دعواتي، راجيًا ان يحدث مالا نعلمه و ينقذنا الله مما نعلمه.. كلي إيمان بقدرة الله.. و إن كان مصيري الموت في تلك البقعه من الارض في ذلك الزمن الغابر عنا.. فلتكن مشيئة الله.. يكفيني رؤية جدي لمرة اخيرة قبل ان يلتهم نصل السيف عنقي..

بدأ صوت خطوات الحارس في الاقتراب.. لم اتفاجأ منها، فتلك المرة الخامسة التي اسمع خطواته خلال ساعات.. لكن تلك المرة استمر الصوت في الاقتراب.. حتى دنا من زنزانتنا.. و توقف!!

انفتح الباب فجأة، كاشفًا عن حارس من حراس السجن و قد ابتسم ابتسامةً عريضةً..

- حان الوقت.. لقد بزغ الفجر..

اغمضت عيني في قوة.. ليته كان حلمًا.. ليته كان خيالًا.. لكنه للاسف واقع لا شك فيه..

اتجه الحارس و تبعه ثلاث حراس اخرون دنا كل منهم من احد المساجين، فأمسك به من قيوده و قام بدفعه للأمام لبدء التحرك نحو ساحة الاعدام..

خرجنا من الزنزانه يحيط بنا الحراس الاربعه عابرين ممرات و سراديب طويلة.. الى أن توقف بنا قائد الحرس قائلًا:

- ادخلوا تلك الغرفة ستجدون اباريق مملوءة ببعض الماء.. توضئوا و صلّوا صلاة الفجر.. تلك تعليمات مولانا الحجاج.. و بدأوا في فك قيود ايدينا

ابتسمت للحظة في سخرية.. يا له من حاكم مؤمن!!

بالفعل اتجه كل منا نحو ابريق و بدأنا في سكب الماء على وجوهنا و اذرعنا و اقدامنا.. و بعد ان انتهينا من الوضوء، اشار الينا الحارس باتجاه القبلة فبدأنا في الصلاة جماعةً خلف جدي..

ادي كل منا الصلاة فانهمك فيها و كأنها بالفعل أخر صلاة لنا على وجه الارض.. خشعنا جميعًا خشوعًا حقيقيًا و قد دعا كل منا ربه في السجود حتى رغبنا ألا نقوم من تلك السجدة...

انتهينا من الصلاة، فأقتاد كل حارس منهم احدنا مرة اخرى و اكملنا طريقنا نحو ساحة المدينه حيث سيتم اعدام ثلاثتنا..

بمجرد خروجنا من تلك السراديب المتشعبة.. ارتقينا لسطح الارض و عبرنا لبوابة السجن، لتري عيناي الشمس لأول مرة منذ دخولي الديماس.. الشمس في بداية شروقها، في زمن لم تلوثه سحب العوادم او يضطرب طقسه بسبب ما فعله الانسان.. شروق بكر و كأنه الشروق الاول للشمس عبر التاريخ.. اذهلني المشهد و اثار شجنًا غريبًا داخلي.. فكما تبدأ حياة يومٍ جديدٍ.. هاهي تنتهي حيوات ثلاث من المظلومين..

خطت اقدامنا بوابة السجن الكبري، ليقتادنا الحراس الى الساحة الكبري التي تتوسط المدينه.. و اثناء اقتيادنا ظلّ اهل المدينه يرمقوني في فضول، و البعض الاخر في غضب و كأنه ينظر لمن قتل ابنه.. تطوع احدهم ليكيل لأي منا لكمة عابرة، ولكن استطاع بعض الحراس الذين انضموا للحراس الاربعه السابقين ان يوقفوه قبل بلوغه إيانا..

تتلاقي عيناي مع عينا جدي في لحظات سريعه متقطعه، لألمح في وجهه الامل.. ياليتني كنت في نصف شجاعتك و رضاك يا جدي.. تتحرك عيني لا راديًا لألمح في نظرة خاطفة وسط الجماهير وجه المنصور، انتبهت فرائصي بشده فأعدت النظر، لأجد بدلًا منه شخصًا اخر.. انه مجرد وهم كاذب.. انتابتني الحسرة و اطرقت برأسي مكملًا عبوري وسط الجماهير الغاضبة التي اكالت لنا السباب و الصياح بلا داعٍ وبلا ادني علم بسبب اعدامنا.. إنها للاسف ثقافة القطيع.. الجماهير الغفيرة تتحرك كفرد واحد في الاحداث الكبري.. و ما يسري على شخصية الفرد الواحد يسري عليها وقتها.. يبدو أن الحكام الطغاه قد استطاعوا زرع تلك الصفة في جماهيرهم منذ قديم الزمان.. يا للاسف..

إن المنصة التي سيتم اعدامنا بها تقترب.. و فوقها يقف السياف شاحذا نصل سيفه.. عفوك و رحمتك يا الله!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اقتادنا الحراس و ارتقينا المنصة في بطء، و كل منا يرغب في الابتعاد عن حد السيف ولو بمقدار شعره يبتعد بها عن الموت.. و في النهاية وصلنا لمستقرنا الاخير.. السيف اللامع يعكس لمعانه على وجوهنا، و بعض الجماهير بدأت في الاستعداد لرؤية الدماء تتفجر من اعناقنا، فبدأ هؤلاء في الصياح لاستعجال السياف على تنفيذ الاوامر المعطاه له..

اركعنا الحراس و وضع كل منا رقبته على ذلك الجزء المرتفع من المنصة حتى صارت رقابنا تحت سيطرة السياف.. تنتظر كلمة البدء لينهال على رؤسنا بسيفه البتار..

بدأ قائد الحرس ذو العمامة الخضراء في تلاوة اوامر الاعدام من رق بسطه بكلتا يديه قائلًا:

بسم الله الرحمن الرحيم، و الصلاة و السلام على نبيه العدنان.. أنه في يوم العاشر من شهر رجب من العام الهجري التسعين.. و بأوامر من حاكمنا العادل الحجاج بن يوسف الثقفي.. بناءًا على ما قام به هؤلاء المجرمين من إخلال بقواعد الولاية، و اختراق لما ارساه حاكمنا من اوامر تحافظ على نظام الولاية و امن شعبه فمارسوا الشغب ضد اخوانهم من اهل مدينتنا الغالية و اوقعوا بهم اكبر الضرر و الاذي.. تقرر إعدامهم بقطع الرقبة و صلب جثثهم خارج اسوار المدينه حتى تفسد اجسادهم ليكونوا عبرة لمن لا يعتبر

أنهي القائد كلماته، و اشار على السياف ان يبدأ بالتنفيذ..

اتجه السياف نحونا بزيه الاسود المهيب، و في قبضتيه ممسكًا بسيف عظيم شديد اللمعان.. اقترب منا حتى دنا من اولنا و كان ذلك اللص الذي لازمنا في الزنزانه.. فصل بين كل منا مسافة تقدر بنصف متر تقريبًا.. و لكني من موضعي استطعت سماع لهاث ذلك السجين، و رأيت دموع تنحدر من وجهه لتغرق سطح المنصة اسفله..

صياح الجماهير المهتاجة يتعالي.. و ضربات قلبي تتزايد حتى قاربت الوصول للانهائية.. السياف يرفع كلا ذراعيه لأقصي ارتفاع ممكن.. ثم يهبط بهما بكل قوة.. ليقتلع السيف عنق زميلي من منبته في سرعه..

هالني المشهد و زلزل كياني في قوة.. مشهد الدماء المتفجرة والذي وصل منها القليل لجانب وجهي.. ارتعبت مما حدث فصرخت صرخة عالية ضاعت في بحر صيحات الجمع الغفير الذي حضر ذلك المشهد مستلذاً بشده مما رآه..

اقترب مني السياف.. لقد جاء دوري.. اراه بصعوبة بعيني التي امتلأت بالدموع.. الموت قادم على بعد خطوات مني.. يمد يده ليمسك بيدي و يأخذني معه لظلمات قبر

لا ادري ما إذا كان قطعه من جنه ام قطعه من جحيم.. عزائي الوحيد أني سأموت قبل جدي.. ولكن يحزنني لوعه جدي الذي سيري رأس حفيده قد قطعت و رُميت في الرمال كجيفة نتنه..

اري جميع احبابي في لحظات سريعه.. اتمسك بإغماض عيني على ذلك المشهد الجميل ليكون اخر ما يبدر ببالى قبل الممات.. اتمتم بالشهاده في خفوت.. منتظرًا الخلاص..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تتعالى صيحات الجماهير.. ولكنها صيحات مختلفة تلك المرة.. صيحات غاضبة بحق.. صيحات يغلب عليها صوت الثورة.. ضد من؟

يرتطم جسم ما بجانبي على ارضيه المنصة.. افتح عيني في دهشة لأجده السياف و قد اخترقت جمجمته سهمًا طويلًا اودي بحياته على الفور و اسال منه الدماء بدلًا مني.. تفاجئت ايما مفاجأه مما حدث.. نظرت حولي لأجد الجماهير تتسلق المنصة و تهاجم الحراس الذين هالهم المشهد و اخذتهم المفاجأه.. ايما مفاجأه.. إنها المعجزة.. لقد ثارت الجماهير!!

وجدت ايادٍ تتلقفني و تسحبني في سرعه بعيدًا عن المنصة.. لم استطع تبين شخصياتهم.. لم ابال بشئ إلا جدي.. نظرت نحوه لأجده مثلي يتم إبعاده بأقصي سرعه عن المنصة و إنزاله بعيدًا وسط الجماهير التي انفض تجمهرها و بدأ كل منهم في مهاجمه الحراس او هدم تلك المنصة التي اريقت فوقها دماء الآلاف..

اوصلتني الايادي برفقه جدي الي بقعه مستترة خلف احد الدكاكين.. لأجد امامي المنصور بن مالك ذات نفسه واقفًا وقد ظهرت السعاده على وجهه.. اندفع نحوي واحتضني في قوة قائلًا:

- اهلًا بك مرة اخرى ايها الغريب.. وأسرع الى قيودي يفكها وبجانبه ولديه الذين جاوز كلا منهما سن المراهقة فصار شابًا يافعًا، وقد تناولا قيود جدي وبدأوا في فكها في اسراع..

مازلت في دهشتي غير مصدق.. حاولت ان اسأله.. كيف حدث كل ما حدث؟

اجابني في سرعه:

- اعلم أنك مثقل بالاسئلة.. لن يمكنني اجابتها الآن.. فلقد حانت الحرب.. كل ما تريد معرفته الآن انني لست بتاجر قماش فقط.. بل إنني اتزعم عدد كبير ممن يعارضون حكم الحجاج وظلمه واستبداده.. ولقد حاولنا خلال شهور أن نثير القلاقل لزعزعه استقرار حكمه الاسود.. ولكن دهاء الحجاج منعنا في كل مرة نحاول فيها.. حتى جاء حدث اعدامك، وفور علمي بما حدث لك بسبب ولدي يزيد.. اقسمت ألا ينال سيف السياف من رقبتك..

نظرت له في امتنان قائلًا: لن تتمكن كلماتي من ايفائك حقك بالفعل..

هز المنصور رأسه في احترام، ثم أردف:

- لا وقت نضيعه.. ثم نادي أحد ولديه.. فهرع الفتي سريعًا خلف الدكان.. وأكمل المنصور كلامه:

- لقد اعددت لك جوادًا تقوده لتهرب به خارج اسوار المدينه.. ولا تقلق.. فرجالى سيستكملون إثارة الجماهير ضد الحجاج.. ادعو لنا بالنصر..

علمت في سري حتمية فشلهم.. فالحجاج سيكمل حكمه ضاربًا بجميع الثورات والقلاقل عرض الحائط الى أن يتوفاه الله بعد خمس سنوات من ذلك العصر.. لكنني هززت رأسي مصدقًا كلامه في صمت..

أتي الفتي بالجياد وعليه سرج جاهز للركوب.. فسألني المنصور: أسرع بالهرب وسأشتت انتباه الحرس عنك..

نظرت لجدي في رعب.. فأنا لا اجيد ركوب الجياد.. وكأن جدي فهم ما تعنيه نظرتي.. فابتسم في سرعه قائلًا:

- انا بعرف اركب الحصان يا أدهم.. رحلاتي علمتني الكتير..

واتبع جملته بالركوب بكل براعه على صهوة الجواد.. فأتبعته وقفزت مثله معتليًا الجواد.. وبدأ جدي في الاسراع نحو بوابة المدينة متفاديًا في صعوبة اجسام الجماهير الحاشده بساحة المدينه..

رأيت المنصور مقاتلًا لثلة من الحراس الذين تكاتفوا عليه حتى قام أحدهم بإغماد سيفه في صدره بالكامل.. انتابني حاله من الحزن صرخت من جرائها، فلفتت انتباه هؤلاء الحرس الذين سارع ثلاثة منهم في اتباعنا بالركوب على جياد لهم..

اخبرت جدي بضرورة الاسراع هربًا من هؤلاء الحرس الذين يتعقبونا كظلنا بالرغم من كل مناوشاتنا وسط الجماهير.. عبرنا بوابة المدينة بعدها بدقائق ومازال الحراس الثلاثة في اعقابنا.. سألني جدي في قلق:

- لسه الحراس ورانا؟ اجبته بالايجاب.. فسألني مرة اخرى:

- انتا مكان بوابتك فين؟ جاء ردي سريعًا: - ناحية الجنوب بإتجاه التل اللي هناك..

اتجه جدي نحو تلك التلة وقام بحث الجواد على الاسراع.. ظللنا في طريقنا لدقائق معدودات.. والحراس مازالوا على مقربة منا.. التل يقترب.. وكذلك الحراس المصرين اشد اصرار على اللحاق بنا والنيل منا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصلنا الى التل اخيرًا.. ليهبط كلانا عن صهوة الحصان.. اسرعت بإخراج الساعه من ردائي واعطيتها لجدي في سرعه مرفقًا بذلك كلامي:

- ابدأ في فتح البوابة وانا هحاول تعطيلهم..

رد جدي في قوة:

- ازاي؟ دول تلاته وانتا لوحدك..

اجبته في قلق: اكيد هنلاقي سلاح في سرج الحصان دا واتجهت بالفعل نحو السرج ابحث عما ينقذنا.. فوجدته رابضًا.. ذلك السيف الموضوع في غمده ينتظر من يخرجه.. امسكت به في قوة، انها المرة الاولي التي احمل فيها سلاحًا.. وها قد جاء وقتها..

اقترب الحراس منا حتى صارت بيننا أمتار معدودة.. ترجلوا من على صهوة جنودهم.. ودنا ثلاثتهم وقد امسك كل منهم بسيفه مستعدًا لنزالي... أيقنت عدم جدوى قتالهم.. فسألت جدي في سرعه وخفوت:

- فاضل كتير؟

اجابني: خلاص ثواني..

تفتقت عن ذهني فكرة سريعه قد تنقذنا.. حاولت اظهار التماسك والشجاعه.. وصحت بصوت عالٍ:

- قفوا اماكنكم...

بدا على وجه الحراس الثلاثة عدم التصديق.. فكيف يطالبهم فرد واحد مثلي ومعه كهل اشيب لا حول لهم ولا قوة بالوقوف وهم حاملي السلاح المدربين على استعماله أفضل تدريب؟!

ظهر الذهول لثوان على وجوههم ولكنه سرعان ما ذهب ليكملوا اقترابهم مني.. فأكملت كلامي في قوة:

- إنكم لا تعلمون من هذا العجوز الواقف بجانبي.. إنه لساحر عظيم.. بتعاويذه السوداء سيستدعي انفارًا من الجان والمردة لترمي بكم في غياهب الجحيم المستعرة..

لم انتهي من كلامي حتى انفتحت البوابة بالفعل، وبدأ الثقب في التكون في الفراغ امامنا.. اقترن ذلك المشهد المرعب للحراس بكلماتي التي اثارت خيالهم، فكان للحدثين معًا وقع السحر تمامًا على نفوسهم.. بدأ ثلاثتهم في الابتعاد وقد تملكهم الخوف.. وكل منهم يمني نفسه بالهرب.. أسرع جدي بالمرور عبر الثقب.. وعندما تأكدت من ابتعادهم بقدر يمنعهم من الرجوع مرة اخرى.. قمت بالعبور انا الاخر ليبتلعني الثقب في ظلامه المحبب لنفسي الآن... انا عائد لزمننا اخيرًا!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تتابع الضياء والإظلام من حولنا، وذلك الاحساس الشنيع بالانضغاط وانتهاء الانفاس.. ثم العوده السريعه لغرفة مكتب جدي القديم..

تملكني شعور الاعياء لدقائق، فاستندت على جانب المكتب محاولًا التماسك وبالفعل استطعت منع نفسي من التقيؤ مرة اخرى.. نظر الى جدي الذي وقف في ارتياح.. وعيونه تنظر لجوانب الغرفة في شوق ولهفة..

- متقلقش.. مع الوقت هتتعود زي ما انا اتعودت على اعراض السفر دي..

مرت دقائق بطيئة، استعدت بعدها قدرتي على الوقوف بكامل ارادتي.. تنفست الصعداء لوصولنا للحاضر.. ثم نظرت لجدي نظرة طويلة.. احتضنته بعدها في سعاده..

ثم توقفت للحظة مستعيدًا ما قاله منذ قليل..

- مع الوقت اتعود؟ ازاي؟ هو فيه رحلات تاني؟

نظر الى جدي نظرة مليئة بمعاني واضحة.. ثم ابتسم في صمت..

النهاية

او مجرد بداية اخرى..

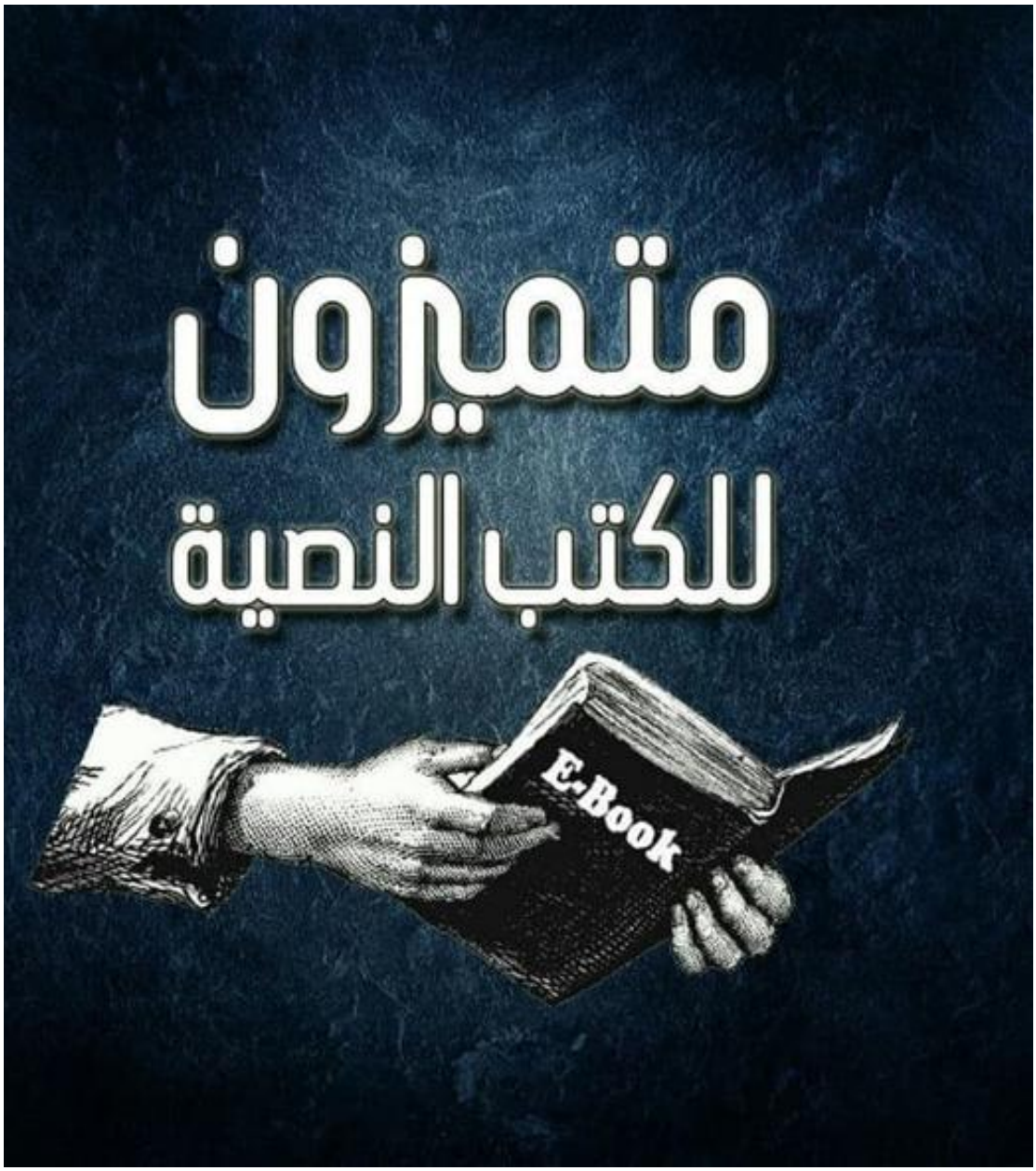
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

شكر وإهداء..

إهداء خاص..

1

2

3

4

5

6

7

8

9

10

11

12

13

14

15

16

17

18

19